كتاب الهلال

الإسلام
دين الفطرة والحرية

تأليف
الشيخ عبد العزيز جاويش



سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيسا تحريرها : اميل زيدان وشكرى زيدان

مدير التحرير : طاهر الطناحى

العدد ١٨ ـ ذو الحجة ١٣٧١ ـ سبتمبر ١٩٥٢

No. 18 — September 1952

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بك
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

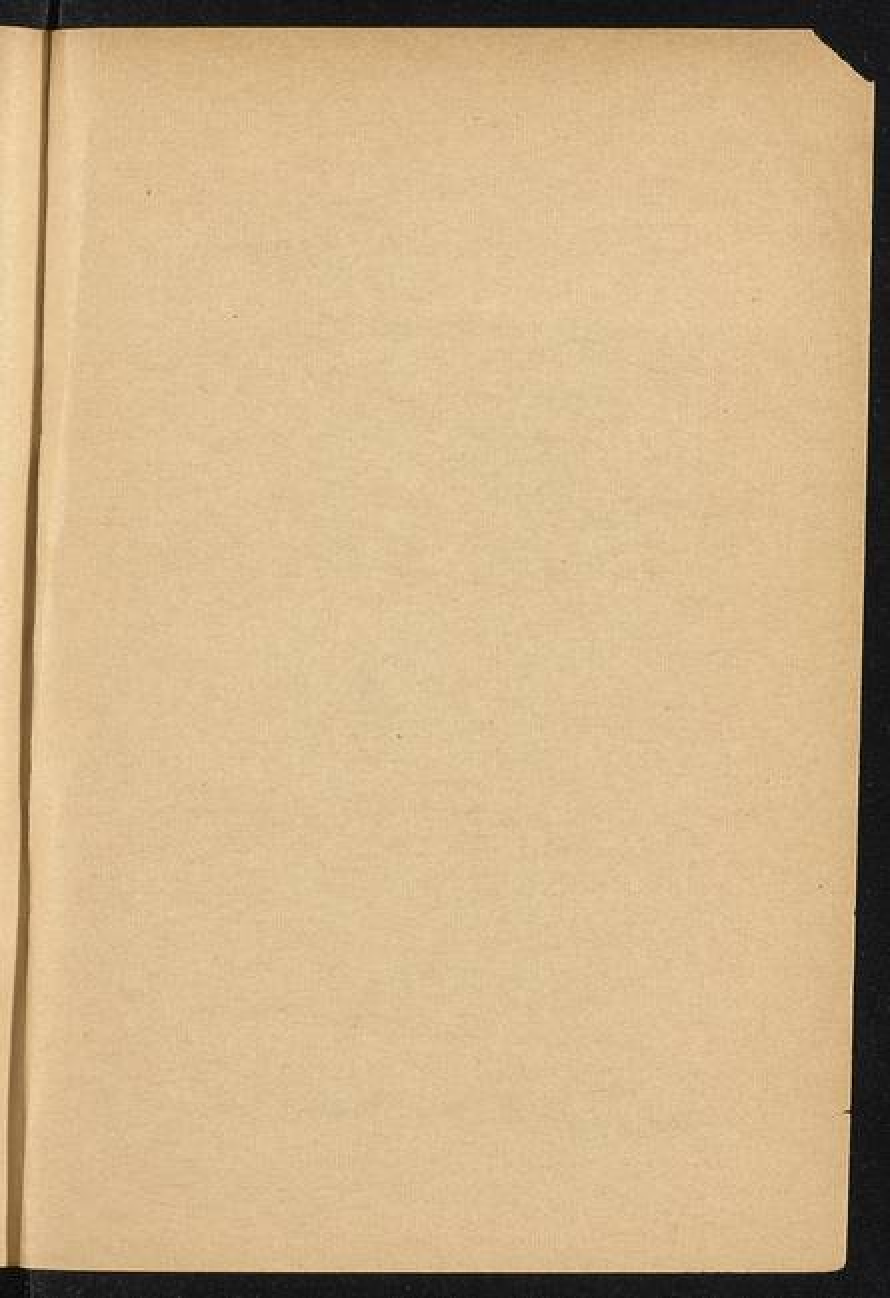
التليفون : ٢٠٦١٠ (تسعة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) ـ مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا ـ سوريا ولبنان ١١ ليرة سورية أو لبنانية ـ الحجاز والعراق والاردن ١١٠ قروش صاغ ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ـ فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٣٠/٩ شلنا

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال



الاسلام
دين الفطرة والحرية

تأليف

الشيخ عبد العزيز جاويش



الاهـــداء

بقلم نجل المؤلف

المرحوم ناصر جاويش

الى الجيل الذى عاصر ابى ، والبقية الصالحة التى نستمد منها العون والهدى فى طريق الحياة

الى الجيـل الذى نشا بعد ابى ، ولم يتح له ان يعرف شيئا ، او عرف القليل عن جهاده فى سبيل الوطن والعروبة

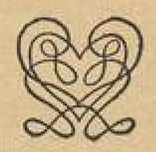
اقدم بعض آثار والدى فى ميدان الاصلاح الدينى والعلمى ، الذى حمل لواءه ، فى عهد كان عبء الدعوة فيه الى الاصلاح فادحا لا ينهض به الا المجاهدون ، من اولى العزم والقوة ، الذين يستسهلون كل صعب فى سبيل اداء رسالتهم ، لا يثنيهم عنها ما يعترض طريقهم من اهوال ، وبخاصة فى تلك الحقبة التى قام فيها بالدعوة الى الاصلاح

وهى رسائل تحمل اسماء مختلفة ولكنها تهدف جميعا الى غرض واحد ، هو الكشف عما فى الاسلام من سمو ورفعة ، وما فى احكامه من علم وحكمة ، وما فى روحه من بر بالانسانية وهداية لابنائها

ولعل من توفيق الله ، ان تتهيأ الفرصة لنشر هذه الرسائل فى الفترة التى تطورت فيها الروح المصرية ، واتجه فيها تفكير المثقفين الى المباحث الدينية على اسلوب علمى ، كان يلتزمه ـ رحمه الله ـ فى كل مباحثه ودراساته

وليس من حقى فى هذا المقام ان اطرى هذه الآثار العلمية ، لانها آثار ابى ، وهانذا اقدمها للقراء اثرا عليه طابع منشئه وحسب ، وفيه قوة روحه وايمانه وكفى

ناصر جاويش



المؤلف فى سطور

* ولد المؤلف فى ٣١ اكتوبر سنة ١٨٧٦ من أسرة مغربية بمدينة الاسكندرية
* بدأ حياته التعليمية بالازهر سنة ١٨٩٢ ثم تخرج فى مدرسة دار العلوم سنة ١٨٩٧
* عين مدرسا فى مدرسة الزراعة ثم أرسلته وزارة المعارف فى بعثة الى جامعة (بروررود) بانجلترا
* عاد من البعثة سنة ١٩٠١ وعين مفتشا بوزارة المعارف
* عين أستاذا للغة العربية بجامعة اكسفورد وأثناء وجوده بانجلترا دعيت الحكومة المصرية لحضور مؤتمر اللغة العربية فى بلاد المغرب فمثلها فى هذا المؤتمر
* عاد عام ١٩٠٦ وعين مفتشا أول بوزارة المعارف واستمر الى أن استقال فى أبريل سنة ١٩٠٨
* رأس تحرير جريدة اللواء فى ٢ مايو سنة ١٩٠٨ خلفا للزعيم الوطنى مصطفى كامل
* قدم للمحاكمة أمام محكمة عابدين سنة ١٩٠٨ فى قضية (الكاملين) لنشره مقالا تحت عنوان (دنشواى أخرى فى السودان) وقد حكم عليه ابتدائيا بتغريمه عشرين جنيها نظير اهانة نظارة الحربية المصرية وبرىء استئنافيا
* قدم للمحاكمة فى سنة ١٩٠٩ بسبب نشره مقالا فى اللواء تحت عنوان (ذكرى دنشواى) اعتبرته النيابة اهانة فى حق بطرس غالى وفتحى زغلول ، وصدر الحكم

استئنافيا بحبسه حبسا بسيطا ثلاثة أشهر

* فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٠٩ قدم له الشعب وساما فى حفل خاص أقيم فى فندق شبرد تقديرا لوطنيته

* فى فبراير سنة ١٩١٠ أنشأ مجلة الهداية لافهام المسلمين أسرار القرآن وأنشأ المدارس الاعدادية الثانوية والليلية لتعليم اللغة الفرنسية وآدابها للازهريين

* فى سنة ١٩١٠ قدم للمحاكمة بسبب وضعه مقدمة لكتاب (وطنيتى) تاليف الشيخ على الغاياتى وحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر حبسا بسيطا مع التنفيذ

* وفى سنة١٩١٢ أبعد الشيخ جاويش الى تركيا حيث أعاد اصدار مجلة (الهداية) و (الهلال العثمانى) و (الحق يعلو)

* وفى سنة ١٩١٢تزعم الشيخ جاويش وبعض زملائه أنصار الحزب الوطنى جمع التبرعات وارسال الذخائر وتهريب القواد الاتراك الى طرابلس لمقاومة الغزو الايطالى

* وفى سنة ١٩١٣ طلبت الحكومة المصرية تسليم الشيخ جاويش لمحاكمته عن تهمة ارسال منشورات ضبطت مع أحد الطلبة المصريين القادمين من تركيا وتم تسليمه فعلا للحكومة المصرية وأودع سجن الحدرة ثم أفرج عنه

* وفى سنة ١٩١٤ أنشأ الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ووضع أساسها وأعاد اصلاح كلية صلاح الدين بالقدس الشريف وعهد اليه بادارتها

* وفى سنة ١٩١٤ سافر الشيخ جاويش الى انجلترا حيث اتفق مع أحد أغنياء الهنود على انشاء أسطول اسلامى وأثناء ذلك حصل اعتداء على الخديو عباس حلمى فشعر بأن السلطات البريطانية تنوى القبض عليه لاتهامه فيه فاختفى وتمكن من الهرب الى باريس

* وفى سنة ١٩١٥ أعدت حملة من الجيش التركى لتخليص مصر من الاحتلال الانجليزى واشترك فيها الشيخ



المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش

جاويش وبعض رجال الحزب الوطنى الذين تمكنوا من السفر خلسة بعد اعلان الحرب

* وفيما بين سنتى ١٩١٥ و ١٩١٨ كان يتنقل ما بين المانيا وتركيا والشام وقد أنشأ مجلات احداها تصدر باللغة الالمانية باسم Die Islamische Welt وثانية فى اسطنبول باللغة العربية باسم (العالم الاسلامى) وفى سويسرا مجلة باسم L'Egypte بالاشتراك مع رجال الحزب الوطنى للدفاع عن استقلال مصر ، وكذلك استخلص الاعتراف باستقلال مصر من مجلس المبعوثان بالاستانة والريخستاغ بالمانيا فى عام ١٩١٧ ، كما اشترك فى مؤتمر الدفاع عن الأمم المهضومة الحقوق فى استكهولم

* وفى سنة ١٩١٨ غادر الشيخ جاويش ومعه رجال الحزب الوطنى تركيا خفية بعد انتهاء الحرب الى المانيا عن طريق روسيا ثم الى سويسرا حيث قاموا بالاتصال بالوفد المصرى بباريس وقدموا له مذكرة بما قاموا به فى أوربا

* وفى سنة ١٩٢٢ استدعاه الغازى مصطفى كمال باشا وعينه رئيسا للجنة الشئون التأليفية الاسلامية بأنقرة

* وفى سنة ١٩٢٣ حصل خلاف بينه وبين الغازى مصطفى كمال فى شأن الغاء الخلافة ، وكان الدستور قد أعلن بمصر فحاول العودة للوطن وتمكن من العودة الى مصر خفية فى ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٣ . ونشرت جميع الصحف مقالا تحت عنوان (تجديد العهد) بتوقيع الشيخ جاويش وبعد عشرة أيام صرحت الحكومة للشيخ جاويش بالاقامة بمصر وكان يتولى الوزارة وقتذاك يحيى ابراهيم

* وفى سنة ١٩٢٥ عين مراقبا عاما للتعليم الأولى بوزارة المعارف العمومية وقام باصلاحاته المعروفة

* وفى ٢٥ يناير سنة ١٩٢٩ توفى رحمه الله بعد حياة حافلة بالجهاد والوطنية وسنه لا تتجاوز الثالثة والخمسين

دين الفطرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

زارني ذات يوم ، وانا فى اكسفورد من بلاد الانكليز ، لفيف من نجباء طلبة العلم فى كليتها الجامعة ، فما كاد يستوى بهم المجلس حتى اخذنا نتحادث فى امر الشرق والشرقيين ، وما لهم من الأخلاق والعادات والأحوال ، التى تباين فى كثير من الوجوه ، ما عليه اهل اوربا ، حتى افضى بنا المقام الى الكلام فى الاسلام ، فوجدت من خلال حديث القوم انهم لا يكادون يفقهون للاسلام معنى ، سوى انه دين الاسترقاق والطلاق وتعدد الزوجات ، وأن المسلمين يعبدون محمداً كما يعبد النصارى المسيح ابن مريم ، وما زادونى فيهم بصيرة ، فلطالما قابلت من أمثالهم ما أوقفنى على مبلغ علم معظم القوم بهذا الدين الحنيف

فاخذت اذ ذاك ابين لاولئك الأفاضل ، اصول الدين الاسلامى وقواعده وحكم بعض تكاليفه ، فكنت ارى القوم يتدبرون ما اقص عليهم ، من غير ان يستهوى نفوسهم تعصب ، ولا يعمى قلوبهم عناد أو جحود ، بل نبذوا وراء ظهورهم جميع ما كانوا يلقنونه منذ المهد من النقائص ، التى

مثلت لهم الاسلام فى ابشع صورة واقبحها ، ولم يكد ينتهى بنا الحديث ، حتى انطلق احدهم قائلا : « يخيل الى أيها الشيخ أن هذا الدين لاينافى الفطرة فى شىء » . فاجبته اذ ذاك بما تذكرته من قوله عليه السلام : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا تجدعونها » . وترجمت لهم ذلك الحديث الشريف

والذى يفهم من الحديث أن التهويد أو التنصير صفة تطرأ على الانسان بكسب ابويه كالجدع الذى يصيب الشاة بعد أن تولد على الفطرة سليمة لا عيب فيها

ويدل على ذلك ما نص عليه الشرع الاسلامى من عدم تكليف القاصرين والا يؤاخذوا بما فعل آباؤهم من التهويد والتنصير ، حتى يبلغوا راشدين راضين بدين آبائهم فيؤاخذوا اذ ذاك وقد القيت على كواهلهم اعباء التكاليف بما كسبت أيديهم

فترى الاسلام قد اعتبر القاصرين ، حتى أبناء النصارى أو اليهود أو المجوس ، مسلمين ناجين حتى يكلفوا . فالدين الفطرى لكل مولود هو الاسلام الا فيما يتعلق ببعض المعاملات الدنيوية كالارث ونحوه ، فان الأطفال فى ذلك تابعون لآبائهم

(وبعد) فانا نريد أن نذكر لك وجه كون الاسلام دين الفطرة ، وانه لو ترك الطفل وشانه حتى كبر غير مهود ولا منصر لما اختار بفطرته الا الاسلام ، ولا يمكن توضيح

ذلك الا بالبحث فى بعض اصول الاسلام وقواعده والأغراض التى يرمى اليها الشارع فى تكاليفه ، فنقول :

الفطرة والتوحيد

كل انسان يشعر بفطرته أن ثمة واحدا قد نظم هذا العالم ودبره ، لايمكن أن يشابه الممكنات فى شىء من صفاتها ، فليس بجسم ولا عرض ولا محدود ولا متحيز ، ولا يستطاع ادراكه الا بآثاره الشاخصة ، وهو غير قابل للحلول ولا للصعود ولا للنزول

الى ذلك اهتدى الاعرابى بفطرته فقال : « البعرة تدل على البعير ، وأثر الأقدام يدل على المسير . فسماء ذات ابراج . وارض ذات فجاج ، كيف لا تدلان على اللطيف الخبير » . فجاء الاسلام مصدقا لما اقتضته الفطرة السليمة ولم يزد فى الاستدلال شيئا سوى أن ايقظ العقول ونبهها الى النظر فى آثار الله تعالى ، فما عليك الا أن تتصفح القرآن الكريم فتجد ذلك فى أكثر من آية من آياته

نعم ربما قال انسان انه لو كان التوحيد فطريا لما اختلف الناس فى عقائدهم وتباينوا فى تصوير آلهتهم ، فذهبوا كما نعلم مذاهب شتى حتى لا تكاد تجد تشابها بين آلهتهم . وسنحقق لك بعد أن هذا مباين لمقتضى الفطرة ، اذ منشأ ذلك أن الانسان ميال الى الاعتماد على ما يقع تحت حواسه من الكائنات والى انكار ما ليس له فى ذهنه صورة ولا حدود محصورة

فمن ذلك ما قصه الله فى شان معاندى أهل الكتاب حيث

قال : « يسالك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سالوا موسى اكبر من ذلك ، فقالوا ارنا الله جهرة فاخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات »

ومن البديهى أن الشيء لا يصح انكاره الا اذا ثبت بالبرهان القطعى عدم وجوده ، أما مجرد عجز المدارك عن تصوره وتحديده والاحاطة به فمن العجب ان يتخذه ذو عقل برهانا ينفى به وجود الشيء ، واعجب من ذلك ان ترى اكثر المتحككين باهل العلم فى هذا العصر على هذا المذهب العجيب الذى هو آية الجهل ونهاية الحمق

جاء الاسلام فى وصف الحق واثباته بما يطابق مقتضى الفطرة والعقل تمام المطابقة ، افلا تدبرت قوله تعالى : « الله لا اله الا هو الحى القيوم لا تاخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الارض من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم »

لقد جمعتنى المصادفة برجل مسلم من الانجليز ، لم يرج من اسلامه شيئا من حطام الدنيا ، ولا ان ينال جاها يتخذه عدة لنيل شيء من الرغائب السياسية ، فقال لى : « ان فى القرآن الكريم آية لا امل من تكرارها ولا من ترديد النظر فيها ، جاءت فى وصف الله تعالى بما ليس فى استطاعة أحد من ائمة الاديان الاخرى ، على ذكائهم وسعة اطلاعهم ، ان ياتوا به » ، ثم تلا بالانجليزية تلك الآية الكريمة آية الكرسى.

فبأبيك أيها العربى هل مرت تلك الآية مرة على سمعك الا وانت لاه عنها تلعب ، أوحركت بها لسانك الا وانت بها تعجل

هذا وتتميما لموضوع التوحيد اريد ان آتيك هنا بكليمات عثرت عليها (*) للورد ماكولى الكاتب الانكليزى الشهير ، اذ قال ما ترجمته :

« ان علماء المنطق قد بنوا عقائدهم وقضاياهم على البرهان العقلى ، فامكنهم ان يسلموا القول بأن من الأشياء ما لا يمكن للعقل ان يحيط به ، بخلاف السواد الأعظم من العامة فان معظم افكارهم وقضاياهم اما خيالية او وهمية او شعرية فلا يكادون يبنون شيئا من مذاهبهم ومعتقداتهم على نظر صحيح وفكر سليم ، ومن هنا نشأت كما يظهر الأديان الوثنية فى كل أمة وفى كل جيل فى كل زمن ، فاختلفت لذلك صور الآلهة باختلاف ما صوره خيال معتقديها

« ولطالما اذن فينا التاريخ ببيان ما ادخل اليهود قديما فى دينهم من البدع ، مستمسكين بما أملاه عليهم خيالهم الفاسد من ضرورة أن يكون لهم اله محسوس ملموس يقصدونه بالعبادة والاجلال . ويمكن القول بأن معظم الاسباب التى ذكرها (جيبون) وجعلها أساس انتشار الدين النصرانى لم تؤثر ذلك الاثر ولم تنشر ذلك الدين فى أطراف الارض الا لأنها كانت مشفوعة بكثير من تلك القضايا الوهمية التى كان لها اكبر سلطان على نفوس السذج من العامة ، فان الها لم يخلق وكائنا لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الظنون لم يقل به الا الفلاسفة العالمون ، أما

See the essay on Milton (*)

الأخلاط ضعاف العقول من النـاس فانهم ضاقت دائرة افكارهم وانقطعت سلسلة ادراكهم عن أن تصل الى القول باله ليس له صورة محدودة فى نفوسهم ، فكانوا يتأففون ويهزاون ويضحكون من اولئك الفلاسفة ويرمونهم بالبله او قصور الذهن

« طاشت النفوس فى الأزمنة القديمة ، وضلت الصراط السوى ، وقست القلوب ، وانتهكت الحرمات ، فجاء المسيح عليه السلام واخذ يعلم الناس ويدعوهم الى ما جاء به من الهدى فمنهم من آمن ومنهم من كفر

« ولم يسلم تابعو المسيح من النصـارى ان يصيبهم فى ايمانهم مثل ما اصاب اليونان والفرس وغيرهم من قبلهم ، فتمثل الاله لهم فى صورة آدمى مشى بينهم وشاركهم فى اغراضهم وما يعتريهم من الانحلال والاضمحلال ، كما كان يبكى على القبور وينام فى الحظائر ، ثم صلب حتى سال دمه على أعواد الصليب ، فظهروا بذلك للعالم فى لباس جديد من الوثنية ، ثم كان لهم من القسيسين والرهبان بعـد ذلك لفيف من الآلهة على مثال ما كان لليونان ، فكان القديس جورج لديهم اله الحرب كما كان المريخ عند اليونان ، وكذلك اتخـذوا العذراء وسيسليا Cicilia وغيرهما آلهة للجمال وفنـون الأدب كما كانت الزهرة وسـبع كواكب اخرى (the Muses) آلهات لدى اليونان ... وهلم جرا

« ولطالما أخذ المفكرون من رؤساء الدين يزيلون ما لصق بعقول العامة من تلك الصور الوهمية ، ولكنهم لم يفلحوا

« تجد العامة فى هذا اليوم يتعشقون سماع كثير مما

لا معنى له من الخزعبلات ، ويتهافتون على تلقف سير بعض من لا قيمة لهم فى سوق الفضائل والمكرمات ، أكثر مما يميلون الى تعرف وتفهم شيء من قواعد الدين الأساسية »

هذا ما قاله اللورد ماكولى فى شان الدين الذى يعتنقه ويذعن له، وفى الأمم التى شاركته فى الأخذ به وبيان أحوالهم وقد اذكرنى هذا والحديث ذو شجون ما أصاب عقول المسلمين من المس الذى أصاب عامة غيرهم ، افرايت الذين يذهبون الى الأضرحة فيعفرون وجوههم بترابها ويتضرعون الى من فيها متوسلين بهم الى من هو اقرب اليهم واسمع لدعائهم واقدر على اصابتهم واحق بعبادتهم وخشوعهم ؟ « قل افاتخذتم من دونه اولياء لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا ، االه مع الله .. امر ان لا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون » . والخلاصة ان السبيل التى جاء بها الشرع الاسلامى فى الايمان بالله وتقديسه عن الحلول ومشابهة الغير وتوحيده بالعبادة دون كائن غيره هى السبيل التى يصل اليها الانسان بفطرته متى خلى وشانه غير مضلل ببعض الأباطيل ولا مدفوع الى غير تلك السبيل

بسم الله الرحمن الرحيم (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا احد)

النبوة والفرض الفطرى منها

ظهر النبى صلى الله عليه وسلم فى أمة امية ، دينها الوثنية ، ومن اخلاقها الكبر والغطرسة والعناد ، ووسائل ارتزاقها السلب والنهب ، فلما جاءهم الرسول بالحق

الواضح اختلفوا ، فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه

كان معاندواليهود والمشركين يسالون الرسول عليه الصلاة والسلام ان يثبت دعواه النبوة بشيء من المعجزات الخارقة للعادة ، فكان صلى الله عليه وسلم يرجع بهم الى الجواب عما هو من حدود وظيفة الرسل ، اذ لا علاقة عقلية بين دعوى الرسالة والقدرة على شق الارض ونحوه من المعجزات ، ولقد نقل عن ابن رشد ان الآيات الاقتراحية الخاصة بطلب المعجزات لا تدل دلالة قطعية على دعوى الرسالة اذ جاءت منفردة لأنها ليست من افعال الصفة التى سمى بها النبى نبيا أو الرسول رسولا ، ولذا كان النبى عليه السلام يرجع بالقوم الى ما هو من حدوده والى تدبر ما جاء به القرآن الكريم من الهداية ، فان دلالة القرآن على هذه الصفة كدلالة الابراء على الطب لمن يدعيه ، قال تعالى : « وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ، قل انما الآيات عند الله ، وانما انا نذير مبين ، أولم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ». ولطالما تنصل النبى صلى الله عليه وسلم من اجابة مطالب العرب ، وأرشدهم الى ما قصد من شريعته وهو اصلاح شأن العالم الانسانى والقضاء على ما كان سائدا فيهم من الضلال المبين ، قال تعالى : « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا اقول لكم انى ملك ان اتبع الا ما يوحى الى . قل هل يستوى الأعمى والبصير افلا تتفكرون » وجاء فى سورة الاسراء : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار

خلالها تفجيرا ، او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تاتى بالله والملائكة قبيلا، او يكون لك بيت من زخرف اوترقى فى السماء . ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا »

كم حذر النبى صلى الله عليه وسلم الناس من اللجاج فى طلب المعجزات وبين لهم وخامة عواقبها وسوء نتائجها ، فمن ذلك قوله تعالى : « وما نرسل بالآيات الا تخويفا » وقال : « قل انى على بينة من ربى وكذبتم به ما عندى ما تستعجلون به ان الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ، قل لو ان عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين »

لم يكن طلب المعجزات من النبى عليه السلام ناشئا عن ترو من العرب وصدق راى وسلامة فطرة واصرار منهم على الا يقبلوا شيئا الا ببرهان ، ولكنهم كانوا يقترحونها اما عبثا او عنادا أو عملا بما تلقفوه عن الجاهلية الاولى وما املت عليهم نفوسهم التى أخذ الضلال بتلابيبها ، فكان النبى عليه السلام يدعوهم الى العمل بمقتضيات الفطرة الانسانية وبطلب ما لا يخالف سنة الله التى لن تجد لها تبديلا ، قال تعالى : « واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل انما الآيات عند الله وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون ، ونقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون . ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا ان يشاء الله ولكن اكثرهم يجهلون » . اراد الله

الحكيم ان يبين للناس ان تلك الآيات التى يطلبونها لا تصلح مفحما لهم وحجة قائمة تلزمهم اتباع شرعه ، اذ مثلها فى ذلك مثل من ادعى ان ٢+٢=٥ وبرهن على ذلك بابرائه مريضا من داء عضال ، فان المدعى بها اتى من الأمور العجيبة وخوارق العادات ما لا يستطيع أن يحمل احدا على اعتقاد صحة دعواه التى اتى بها ، ومن هناك كان الأقدمون من اليهود وغيرهم يؤولون ما يأتى به انبياؤهم من المعجزات ، فقائل انها سحر وقائل انها من اعمال الجن المسخرة لهم ، حتى اذا ضاقت عليهم الأسباب لجأوا الى التماس اسباب أخرى غير معقولة كاعتذارهم بعجز افهامهم عن ادراك معنى تلك الآيات مع اصرارهم على الجحود والانكار ، كما قال تعالى : « وقالوا قلوبنا غلف » وقال تعالى : « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب » فكانوا يقفون بعد ان تأتيهم الآيات موقف المحارب لله العابث بآياته فيصيبهم ما يصيبهم من العذاب والانتقام لما حاربوا الله ورسله وسخروا منهم وتلاعبوا بما جاءوا به من الآيات

طالما كذب المشركون النبى صلى الله عليه وسلم ، كما فعل اسلافهم ، وناله من عنائهم ولجاجهم فى طلب المعجزات ومغالاتهم فى العناد ما كان يحزنه ويكاد يطلق لسانه أن يستعجل بهم السوء ، ولو كانت الخوارق فى يد النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت من البراهين التى تصح لالزام الخصم وافحامه ، لما قعد بالنبى عليه السلام أمر عن الاتيان بها ، ولكنها كلمات الله التى لا مبدل لها وسنته التى لا تتغير ، وفطرته التى فطر الكون عليها « وان كان كبر عليك اعراضهم

فان استطعت ان تبتغى نفقا فى الارض او سلما فى السماء فتاتيهم باية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين »

▭

والخلاصة اننا نرى القرآن فى غير موضع يؤذن فى ارباب العقول بالتدبر وأن لا يشطوا فى مطالبهم ولا يعتسفوا فى اقتراحاتهم ، بل اوجب عليهم ان يسلكوا الجادة الموصلة الى ما يريدون من الغايات . ومن البين ان القرآن هو المعجزة الخالدة الأبدية التى جاء بها ذلك النبى الأمى عليه الصلاة والسلام حجة بالغة بين يديه ونورا مبينا يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ولذلك نرى القوم كلما اشرابت نفوسهم الى نزول احدى المعجزات امرهم الله بتدبر آيات القرآن الكريم

القرآن والفطرة البشرية

نزل القرآن الكريم ليؤدى ما قصد منه حسب الفطرة البشرية والسنة الالهية من الهداية من الضلالة والشفاء من الجهالة ، وما زال القرآن اماما يتبع وفيصلا يحكم فى النوازل ، حتى ساد الجهل واخذ من المسلمين ماخذه ، فاستعملوا آيات القرآن فى غير ما وضعت له ، فاتخذوها للتطبيب والفتك بالأعداء وكشف عالم الغيب وقضاء الحاجات وحل الطلسمات وتسخير الجن وتوسيع الرزق ، وليتهم وقفوا عند ذلك الحد ، بل تراهم تطرفوا واجترأوا

على القرآن ومنزله ، فأولوا القرآن طبقا لأهوائهم واخرجوا كثيرا من آياته عن معانيها التى تفهم من لغته واسلوبه وسياقه ، أما رأيتهم كيف يفهمون قوله تعالى : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » وقوله : « شفاء لما فى الصدور » وقوله : « لهم ما يشاءون عند ربهم » وقوله : « حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما » وقوله : « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا اتينا طائعين» وقوله : « ألم نجعل الارض مهادا والجبال أوتادا » الى نحو ذلك من الآيات . وان شئت أن تعرف ما اتى به بعض المفسرين فى تفسير هذه الآيات وامثالها من الافك المبين والجهل الفاضح فارجع الى ما كتبوا. ولنضرب لك مثلا شيئا مما كتبوه فنقول :

(١) جاء فى الجزء الثانى عشر من تفسير الطبرى عند الكلام على قوله تعالى : « وقيل يا ارض ابلعى ماءك ويا سماء اقلعى وغيض الماء وقضى الامر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين » حديث موضوع فى وصف سفينة نوح حيث قال عن ابن جريج انه قال كانت السفينة أعلاها للطير ووسطها للناس وفى أسفلها السباع وكان طولها فى الجو ثلاثين ذراعا ودفعت من عين وردة يوم الجمعة لعشر ليال مضين من رجب وأرست على الجودى يوم عاشوراء ومرت بالبيت فطافت به سبعا وقد رفعه الله من الغرق ثم جاءت اليمن ثم رجعت . . . اه

(٢) وجاء فى كثير من التفاسير فى تأويل قوله تعالى :

« له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله »
ـ فى سورة الرعد ـ ان الضمير فى « له » عائد الى من ذكر
اسم الله وان المعقبات الملائكة تتعقب على العبد ، وذلك أن
ملائكة الليل اذا صعدت اعقبتها ملائكة النهار ، فاذا انقضى
النهار صعدت ملائكته ثم اعقبتها ملائكة الليل ، ورووا فى
ذلك حديثا عن كنانة العدوى قال : دخل عثمان بن عفان
على رسول الله فقال : اخبرنى عن العبد كم معه من ملك .
قال ملك على يمينك على حسناتك وهو امين على الذى
على الشمال ..... وملكان من بين يديك ومن خلفك .
يقول الله له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من
امر الله ، وملك قابض على ناصيتك ، فاذا تواضعت لله
رفعك ، واذا تجبرت على الله قصمك ، وملكان على شفتيك
ليس يحفظان عليك الا الصلاة على محمد عليه الصلاة
والسلام ، وملك على فيك لا يدع الحية تدخل اليه ، وملكان
على يمينك ، فهؤلاء عشرة املاك على كل آدمى وابليس
بالنهار وولده بالليل ... اهـ

ولا يخفى ان هذا الحديث مكذوب على حضرة النبى (ص) ،
على انه مع ذلك سخيف العبارة ساقطها . واغرب من ذلك
حمل القرآن عليه وتاويله به ، مع ان سياق الآية لا يكاد
يحتمله بوجه من الوجوه ، فان سياق الآية كان فى التكلم
على علم الله واحاطته بجميع الكائنات ، وعلى عظمته وتعاليه
المتناهى الذى يغلب معه كل مغالب ولا يقى الانسان دونه
اى حافظ ، اذ قال : « عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال
سواء منكم من اسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف

بالليل وسارب بالنهــار ، له معقبات من بين يديه ومن خلفــه يحفظونه من أمر الله » . فالمســـــتخفى بالليــل والســارب بالنهــار المتخذان لهما حرسا سواء عند الله فلا الاستخفاء بحاجب المستخفى عن الله ولا الحرس يدفع عن الانســان ما يقضى به الله على عباده . ثم بينت الآية ان سنة الله فى خلقه ربط الأسباب بمسبباتها ، فخفاء الأسباب او كتمانها لا يحول دون تحقق نتائجها ، فان الله الذى جعل ذلك الرباط ــ رباط السببية ــ مطلع على خفايا الامور محيط بماتخفيه الضمائر، فلا يغيرالله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فاذا تحققت أسباب اى قضاء واراد الله تعالى تحقيق ذلك فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ، فلا ينفع الانسان اذ ذاك حرس كثيف يتعاقب عليه دائما يقيه شر الحوادث

هذا مايفهم من الآية وسياقها فعجبا لأولئك المفسرين أرادوا ان يؤولوها ذلك التأويل الشاذ ، فلما لم يساعدهم على ذلك نظم الآية قالوا ان الضمير فى قوله تعالى « له معقبات » يعود على من ذكر اسم الله تعالى ، وهذا لا اثر له اصلا فى الآية

(٣) ومن ذلك ما قاله بعضـــهم فى تأويل قوله تعـــالى : « تنزل الملائكة والروح فيها » بسورة القدر ــ حيث فسر الروح بأنه ملك لو التقم السموات السبع والأرضين السبع كانت له لقمة واحدة ، او هــو ملك راسه تحت العــرش ورجلاه فى آخر الأرض الســابعة وله الف راس كل راس اعظم من الدنيا وفى كل وجه الف فم . . . الى آخر السلسلة المعروفة ، فانظر الى هذه الخزعبلات التى يحملون عليهــا كتاب الله تعالى

(٤) ومن ذلك ايضا ما اتى به كثير من المفسرين فى تأويل قوله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب » اختلف اهل التأويل فى ذلك . فقال بعضهم : يمحو الله ما يشاء من امور عباده فيغيره الا الشقاء والسعادة فانهما لا يغيران ، وزاد بعضهم الحياة والموت ، ثم انقسموا ، فقال بعضهم ان ذلك فى ليالى القدر ، وقال بعضهم انه فى ليلة النصف من شعبان . وقال آخرون ان ذلك فى كل ليلة . ففى تفسير ابن جرير عن ابى الدرداء قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله ينزل فى ثلاث ساعات يبقين من الليل ، يفتح الذكر فى الساعة الاولى الذى لم يره احد غيره يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء ، وقال ايضا : ان الله يفتح الذكر فى ثلاث ساعات يبقين من الليل فى الساعة الاولى منهن ينظر فى الكتاب الذى لا ينظر فيه احد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء) واذا شئت أن تستقصى ما قالوه فى امثال هذه الموضوعات فعليك بكتبهم

دعاء نصف شعبان

ولعلك تتطلع نفسك الى تفهم معنى المحو والاثبات هنا ، فنقول : قبل أن نحقق لك معناهما نذكر لك الآية بتمامها ليتجلى لك معناها

قال تعالى : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم ازواجا وذرية وما كان لرسول ان ياتى بآية الا باذن الله لكل اجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب» . انقسم اهل الكتاب على النبى عليه الصلاة والسلام فمنهم

احزاب كانوا يفرحون بما انزل عليه من الأحكام ، كما كان من الأحزاب من ينكر بعضها ويستقبح ما كان يفعله المصطفى صلى الله عليه وسلم من التزوج والأكل والشرب ونحوها من اعمال الدنيا « وقالوا ما لهذا الرسول ياكل الطعام ويمشى فى الأسواق » وكذلك كانوا كلما سالوا المصطفى صلى الله عليه وسلم شيئا من الآيات الخارقة للعادة كاغاضة المياه ونقل الجبال واحياء الموتى لا يجيبهم الى شىء من مطالبهم واقتراحاتهم كما قدمنا ، فكانوا يستضعفونه وينزلون من شانه ويعتبرونه عاجزا لا ينبغى له أن يدعى النبوة ، فرد الله على اولئك القوم ، وبين لهم أن تلك الأشياء لا تنافى الرسالة فى شىء فقال : « ولقد ارسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية » كما بين ان التصرف فى الكون والاتيان بخوارق العادات ليس الا لله تعالى فقال « وما كان لرسول ان ياتى بآية الا باذن الله » فهو الذى يمحو ما يشاء محوه ، ويثبت ما يشاء اثباته ، طبقا لما سبق فى علمه القديم ، كما يدل عليه قوله تعالى : «وعنده ام الكتاب». اذ معنى ام الكتاب اصله ، وأصله هو العلم القديم الذى لا تتعلق قدرة ولا ارادة بشىء الا طبقا له . وبالجملة انه لم يقصد من قوله تعالى « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » الا مجرد تاكيد ما استفيد من قوله قبل ذلك : « وما كان لرسول ان ياتى بآية الا باذن الله » . هذا هو معنى الآية الكريمة فاضرب بغيره عرض الحائط ولا تبال ، ولاحذرك مما يعتقده بعض الناس مستدلين بهذه الآية من ان الله تعالى قد يغير ما سبق فى علمه الا الشقاء والسعادة ، فان هذا يفضى الى

القول بان علم الله القديم ينقلب جهلا ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . فالحذر الحذر من قراءة الدعاء المشهور المعتاد قراءته فى ليلة النصف من شهر شعبان اذ ورد فيه : « اللهم ان كنت كتبتنى عندك فى ام الكتاب شقيا او محروما او مطرودا او مقترا على فى الرزق فامح اللهم بفضلك شقاوتى وحرمانى الخ » فان معنى ذلك ان الداعى يسال الله ان يغير ما سبق علمه ازلا الى ما هو من مشتهيات نفس الداعى ، وان انقلب علم الله بذلك جهلا

اعداء القرآن

عاش النبى صلى الله عليه وسلم ما عاش ، ثم مضى السلف الصالح من بعده ، فما سمع أن احدا منهم فهم من القرآن الا ما يدل عليه من حيث هو كتاب عربى مبين ، ثم خلف من بعدهم خلف افتاتوا على النبى وصالح أتباعه ، وبرزوا للعالم فيما شاءوا من القحة والدعارة مدعين أنهم أعلم بما فى غضون كتاب الله ممن انزل عليه ذلك الكتاب ، فتجلوا للقرآن اعداء فى ثياب اصدقاء ، يلزمونه بما ينكره ، ويحملونه ما لا يحتمله ، ويفسرونه طبقا لاهوائهم ، ويكلفونه من التاويل ما يكاد يخرجه عن الفرض الذى انزل لأجله ، والله يقول : « كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا » ويقول : « انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله » ويقول : « الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم اجرا حسنا ماكثين فيه ابدا » وكذلك يقول : « قد جاءكم

من الله نور وكتاب مبين يهـدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه » ولقد اتى القرآن بما يضيق المقام عن استقصائه من امثال تلك الآيات التى تنطق ببيان الغرض الذى جاء له القرآن الكريم

غفل اكثر المفسرين ، او جهلوا الغرض الذى انزل له هذا الكتاب الكريم ، كما كلت افهامهم عن ادراك امثال تلك الآيات الناطقة بما يرمى اليه ، فقالوا ان القرآن لم يترك فنا من الفنون العلمية الا اتى بشىء من مسائله ، فجعلوه كتاب جغرافيا وتاريخ وطبيعة ورياضة وهلم جرا ، وادعوا انه اتى من كل فن بطرف ، فحملوه من التأويل ما ينبو عنه ، ثم ذيلوا آياته بأشياء املاها عليهم جهلهم ، ووسوست لهم بها شياطينهم ، فشوهوه والبسوه غير لباسه ، وصبغوه صبغة ابرزت القرآن والدين وصالح المسلمين بما هم براء منه ، فكانوا اضر عليهم من العدو المبين

لنرجع الى ما ذكره أولئك المفسرون فى شرح ارم ذات العماد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، والى ما قالوه فى امر الزلازل والثـور الحامل للأرض ، ووصف ياجوج وماجوج وما سيقيمون من الحرب العوان حينما يرمون السماء بالنبال لمحاربة الحق تعالى فيامر الله السماء ان تمطر عليهم دما ، الى آخر ما قالوا ، كما الفتك الى ما قالوه فى تعليل ما يشعر به الانسان من سخونة مياه الآبار فى الشتاء ، وبرودتها فى الصيف ، اذ عللوا ذلك بان ليالى الشتاء طويلة ، ولما كانت الشمس تغرب فتدخل فى جوف الارض كان تأثيرها فى المياه التى فى جوف الارض

اثناء الشتاء اكبر من تاثيرها فى اثناء الصيف . هذا بعض ما اتى به اولئك المفسرون ليتمموا به كلام الله تعالى ، فاضحكوا منهم الصبية والبله ، فضلا عن العقلاء من الناس ، كما انهم حملوا غير المسلمين على الاستهزاء بالدين والسخرية بالقرآن الحكيم ، فلقد رايت للقرآن ترجمة بالانكليزية ياتى واضعها بما سطر اولئك الجهلة المتعالمون ، ثم يعقب ذلك بما شاء من الانتقاد والتشهير بدين ذلك الكتاب ، واولئك ائمته ، فيا لله من الصديق الجاهل

كبر على كثير من الناس القول بان القرآن كتاب مبين يفهمه كل من يعرف لسانه ، فجعلوا يحومون حول المعانى البعيدة ليحملوا عليها آيات القرآن . الم تر الى الذين ضلوا واضلوا فجعلوا للقرآن تفسيرين : احدهما باطنى ، والآخر ظاهرى ، وادعوا ان الرسول الذى اتى به لم يصل الى ادراك ما فيه من المعانى الباطنية ، مع انه يقول ما معناه : انا اعلم بكتاب الله تعالى ، ولو علمت بأعلم منى لرحلت اليه ، او كما قال

ارعنى سمعك اقص عليك ان المتدبر للقرآن يرى ان النبى صلى الله عليه وسلم ما سئل فى شىء مما لم يبعث لأجله الا صرف السائل عن قصده ، وتلقاه بغير ما يترقب تنبيها الى انه الأولى بالقصد والأليق بما هو من حدود الرسل ، ووظائفهم من الهداية والارشاد وتبليغ الشرائع . ينوه الى ذلك قوله تعالى : « ويسالونك عن الروح قل الروح من امر ربى » وقوله : « يسالونك عن الاهلة قل هى مواقيت للناس والحج » وقوله : « يسالونك عن الساعة

ايان مرساها . فيم أنت من ذكراها . الى ربك منتهاها . انما انت منذر من يخشاها » فبين الله فى هذه الآيات ان وظيفة الرسل الانذار وتحذير العالم من تلك الساعة التى هى آتية لا ريب فيها ، وليس وظيفتهم تعيين وقتها . ومن ذلك ايضا قوله تعالى : « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا . فيذرها قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا امتا » تدل هذه الآية وما سبق على ما قلناه لك آنفا من ان النبى صلى الله عليه وسلم فى اجابته أمثال أولئك السائلين كان يعلمهم ان لا يسألوا الا عما هو من خصيصات الرسالة ومتعلقاتها ، رجوعا بهم الى السنة الفطرية

هل أسس الاسلام على السيف ؟

لهج معظم الأوربيين ، وضعاف العقول من المسلمين ، بأن الاسلام لم ينتشر ولم ترسخ قدمه فى عالم الوجود الا لأنه سعى والسيوف أمامه تمهد له السبيل ، وتذلل بين يديه العظماء ، وتلجىء المستضعفين الى اعتناقه حقنا لدمائهم ، وصيانة لأملاكهم وأسبابهم ، وقد ضربوا الأمثال بما قام به النبى صلى الله عليه وسلم من سراياه ومغازيه ، ثم بما عمل خلفاؤه من بعده ، على أنهم لو قرأوا القرآن ، وشيئا من التاريخ ، وسيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وعرفوا شيئا من أخلاق العرب وعاداتهم فى ذلك الوقت ، لما تطرق ذلك الخطأ الى عقولهم ، ولا استحوذت عليهم وساوس صدورهم ، حتى يرموا النبى صلى الله عليه وسلم وصالح سلفه بما هم براء منه . نعم انه لا يسعنى أن انكر

أنه قد وجد من أمراء المسلمين من شوهوا وجه الاسلام ، ودنسوه بما جنت أيديهم عليه ، ولكنني أريد أن أتكلم هنا فى الاسلام من حيث هو ، كما أريد أن آتى على نبذ من تاريخ أسباب غزوات النبى صلى الله عليه وسلم وحروبه، لترى أنه صلى الله عليه وسلم ما بدأ أحدا بعدوان فيجميع ما أقامه من الحروب ، وما يتذكر الا أولو الألباب

لا حاجة الى أن أذكر هنا ما كان عليه فى بدء الدعوة من الانفراد والضعف ، وما أصابه من أهله وأقاربه من الأذى، فان هذا ما لا يرتاب فيه أحد

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ، فجعل النبى يسر بدعوته الى من يثق بتوقد فكره ، وتمكن الانصاف من قلبه ، فلم يسل لتأييد رسالته الا سيف الهدى والحجة الدامغة ، فممن آمن بهأبو بكر وعثمان والزبير وعبدالرحمن ابن عوف وأبو ذر الغفارى ، ومن السابقين الى الاسلام خالد بن العاص جاء النبى فقال له : « الام تدعو يا محمد ؟» فقال : « أدعوك الى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، والاحسان الى والديك ، وأن لا تقتل ولدك خشية الفقر ، وأن لا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن ، وأن لا تقتل نفسا حرم الله قتلها الا بالحق ، وأن لا تقرب مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأن توفى الكيل والميزان بالقسط ، وأن تعدل فى قولك ولو كان على ذوى قرباك ، وأن توفى لمن عاهدت » ، فأسلم ، وهكذا دخل هؤلاء الأشراف فى الاسلام غير مهددين ولا ملجئين ،

ولكن طائعين منصفين مدركين الفرق بين ما كانوا عليه من الضلال ، وما أتاهم به هذا الدين الحنيف • ولم يدفعهم الى الدخول فى الاسلام اذ ذاك رغبة فى جاه ، ولا توقع ثروة ولا فقر مدقع ، فان اكثرهم كانوا أوسع ثروة ، واعظم جاها ، وأقوى عصبية ، وأنفذ كلمة من ذلك الفرد الذى اطاعوه ، وتبعوا شرعه ، واحتملوا الأذى فى تأييده « لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله »

ثم جهر النبى صلى الله عليه وسلم بالدعوة ، فسخرت منه قريش ، وكانوا يضحكون منه فى مجالسهم ، وهو مع ذلك لا يثنى عزمه ، ولا يرجع عن تسفيه احلامهم ، وتقبيح الهتهم ، فأضمروا له العداء والبغضاء ثم جاءوا الى ابى طالب عمه وقالوا له : ان لك شأنا وشرفا ومنزلة منا ، وانا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا ، فاما أن تكفه أو ننازله واياك ، حتى يهلك أحد الفريقين • ثم انصرفوا ، فعظم على أبى طالب فراق قومه ، ولم تطب نفسه بخذلان ابن أخيه • فقال له : يا ابن أخى ، ابق على نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيقه • فظن الرسول أن عمه خاذله ، فقال : والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على ان أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه • ثم بكى وولى • وقد صادف النبى على أثر ذلك من أذى قريش ومناواتهم واعتسافهم ومؤامراتهم ما خلد في التاريخ •ومن

ذلك ما رواه البخارى قال : « بينما النبى صلى الله عليه وسلم يصلى فى حجر الكعبة اذ أقبل عقبة بن أبى معيط فوضع ثوبه فى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقا شديدا ، فاقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : «أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم »

ولقد عم الأذى جميع من اسلموا حتى لم يبق أحد الا أصابه منه حظ كبير . ذلك أبو بكر الذى كان فى الجاهلية سيدا شريفا اشتد عليه أذى قريش ، حتى أجمع رأيه على الهجرة الى الحبشة لولا أن عاقد له ابن الدغنة على أن يعبد الله فى داره فيصلى فيها ما شاء ، ويقرأ ما شاء ولا يؤذى قريشا بالاستعلاء به خشية أن تفتن نساؤهم وأبناؤهم ، فلما ابتنى أبو بكر مسجدا بجوار داره يتعبد فيه أتى ابن الدغنة أبا بكر فقال : قد علمت الذى عاقدت الله عليه ،فاما أن تقتصر على ذلك ، واما أن ترجع الى ذمتى ، فانى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له . فقال أبو بكر : فانى أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله (كما فى البخارى بتصرف)

تفاقم الخطب ، وأحدقت الفتن بالمسلمين ، حتى عجزوا عن احتمالها ، فاشار النبى صلى الله عليه وسلم عليهم بالهجرة الى بلاد الحبشة ، فهاجر منهم عشرة رجال وخمس نسوة،فلما اعيت قريشا الحيل ، عزموا على منابذةبني هاشم وبنى المطلب واخراجهم من مكة والتضييق عليهم حتى

يسلموا محمدا صلى الله عليه وسلم للقتل . وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها فى جوف الكعبة ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة ، فهاجر معظمهم

ولما رأى النبى صلى الله عليه وسلم من قريش ما رأى جعل يخرج فى الاسواق العربية ، ويعرض نفسه على القبائل ليحموه ، فكان منهم من يرده ردا جميلا ، ومنهم من يلقى عليه قولا ثقيلا ، حتى اذا جاء رؤساء الأوس الى مكة ليحالفوا قريشا على الخزرج جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «هل لكم فى خير مما جئتم له ، أن تؤمنوا بالله وحده ولا تشركوا به شيئا » ثم تلا عليهم القرآن ولم يمض الا قليل حتى آمن به بعضهم وصدقوه فيما جاء به ، ثم أخذ عدد المسلمين من الأوس والخزرج يزداد قليلا قليلا ، فأثار ذلك من حنق قريش وسخطهم حتى لقد جعلوا يغلون فى ايذائهم للنبى على ما هو فى كتب السنة الصحيحة . فلما علموا بما حالف الأنصار عليه النبى صلى الله عليه وسلم اجمعوا أمرهم على أن يقتلوه ، واتفقوا على أن يأخذوا من كل قبيلة شابا جلدا ويجتمعوا أمام داره ، فاذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يقدر بنو عبد مناف على محاربة قريش كلهم ، فألهم الله النبى صلى الله عليه وسلم جميع ما دبر له أعداؤه ، فخرج هو وصاحبه أبو بكر الى المدينة لينزل فيمن عززوه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه

اسباب الغزوات

هكذا كان مجمل بدء الدعوة الاسلامية ، وانني هنا لواثق أنه لا يكاد يوجد من المعارضين من يستطيع التبجح فينكر شيئا من ذلك ، أو يدعى أن سيفا أعمل فى خلال تلك السنين. فما على الا ان اسرد لك أسباب ما كان بعد ذلك من الغزوات والسرايا مختارا أشدها وأهمها فى اظهار الدين ، فأقول : أباح الله لرسوله محاربة من آذاه من كفار قريش، وأخرجوه هو وأصحابه من ديارهم فقال : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير • الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » وقال: « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين• واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين • فان انتهوا فان الله غفور رحيم • وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » فلم يبح الله للنبى مقاتلة غير كفارقريش لما ناله منهم، فلما تمالأ على المسلمين غيرهم من قبائل العرب ، أباح الله للنبى أن يقاتل كل معتد عليه فقال : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » وقال : « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » فانظر الى ما شرعه الله للمسلمين من القتال ، اتجده يخالف فى شىء ما يسمى فى هذا الزمان بقتال

المدافعة عن النفس ؟ كلا . فلقد نهى الله المسلمين عن الاعتداء ، ولم يبح لهم الا مقاتلة الظالمين البادئين بمقاتلتهم

شرع الله قتال أهل مكة لما اعتدوا على النبى صلى الله عليه وسلم وهموا بقتله،وأخرجوه من دياره هو وأصحابه لأجل أضعاف شوكتهم وفل غرورهم ، حتى لا يتمكنوا من العودة الى محاولة قضاء ما ربهم من النبى صلى الله عليه وسلم ، فانه كبر عليهم خروجه ووجوده فيمن حالفوه على النصر والتأييد ، فكانوا يتحينون الفرص للايقاع به والقضاء على دينه وشيعته ، فلو تركوا بلا مناوشة لاستفحل أمرهم ، ولضاق ذرع المسلمين عن مقاومتهم ، فكان من الحزم وسداد الرأى أن يقعد النبى صلى الله عليه وسلم لهم كل مرصد ويضيق عليهم السبل، فكان يرسل السرايا ، ويخرج بنفسه فى المغازى ، حتى لا تمر عير لقريش الا صادرها ، وحرم المشركين مما فيها من الأمتعة، فكان مرة يصيب منهم ، وتارة يخطئهم . فمن أكبر الغزوات التى انتصر فيها المسلمون غزوة بدر الكبرى ، خرج النبى صلى الله عليه وسلم مترصدا أعظم عير لقريش آتية من الشام جمع فيها غالب أموال قريش حتى لم يبق بمكة قرشى ولا قرشية لهما مثقال فصاعدا الا بعثا به فى تلك العير

فلما علم أبو سفيان بخروج الرسول فى رجاله ارسل الى قريش فنفروا سراعا لحماية تجارتهم ، وكانوا تسعمائة وخمسين رجلا ، فالتقى الجمعان ، وكان ما كان من

نصرة المسلمين على ضعفهم وقلة عددهم « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة »

□

وكان يهود المدينة يضمرون البغضاء للمسلمين ويتشوقون أن يصيبهم من أهل مكة ما لا قبل لهم به ، فلما كانت وقعة بدر الكبرى التى أيد الله فيها نبيه عليه الصلاة والسلام والمسلمين نبذوا ما كانوا عاهدوا عليه الرسول، فبدت البغضاء من أفواههم، وما تخفى صدورهم أكبر ، فلقد قال رؤساؤهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقد حذرهم عاقبة البغى : « لا يغرنك يا محمد ما لقيت من قومك فانهم لا علم لهم بالحرب ولئن لقيتنا لتعلمن من تلاقى » فبنقضهم ميثاقهم ، وبدئهم بالعداء سار اليهم النبى صلى الله عليه وسلم وحاصرهم خمس عشرة ليلة ، فلما آنسوا من أنفسهم الضعف ، واستولى على أفئدتهم الرعب ، سالوا الرسول أن يخلى سبيلهم فيخرجوا من المدينة ، ولهم النساء والذرية ، وللمسلمين الأموال ، فقبل منهم ذلك

وقد عزم النبى صلى الله عليه وسلم على الذهاب الى مكة لتادية نسك العمرة ، فخرج فى ألف وخمسمائة من أصحابه ومعهم الهدى ايذانا بأنه لم يذهب الى مكة محاربا، فساروا حتى نزلوا باقصى الحديبية ، ثم أن الرسول اختار عثمان بن عفان سفيرا الى قريش ليعلمهم مقصده ، فذهب عثمان وبلغ ما حمل ، فقالت قريش : ان محمدا لا يدخلها

عنوة أبدا ، ثم أنهم حبسوه . فشاع أن عثمان قتل ، فقال عليه الصلاة والسلام حينما بلغه ذلك الخبر : « لا نبرح حتى نناجزهم الحرب » . وبايع أصحابه على القتال ، فخافت لذلك قريش ، فأرسلت سهيل بن عمرو فى طلب الصلح ، فوضعت الحرب أوزارها على ما تراضوا عليه من الشروط التى منها وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنين

ثم انصرف النبى والمسلمين قافلين الى المدينة فى تلك السنة ، وعادوا لقضاء عمرتهم فى العام التالى ، ثم عمل النبى صلى الله عليه وسلم بمقتضى شروط الصلح ، فلم يخفر ذمة ، ولم ينقض عهدا ، حتى بدأت قريش بالعدوان

ذلك أنه قد دخل فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم قبيلة يقال لها خزاعة، كما دخل فى عهد قريش قبيلة أخرى يقال لها بكر ، وكان بين هاتين القبيلتين أضغان كثيرة ، وترات قديمة ، فاتفق أن رجلا من بكر وقف يتغنى ذات يوم بهجاء النبى صلى الله عليه وسلم على مسمع من رجل خزاعى ، فقام هذا فضربه ، فأثار ذلك كامن أحقاد بكر واستشاطوا غضبا ، فاستعانوا بقريش على الفتك بقبيلة خزاعة ، فأمدتهم قريش بالعدة والرجال ، ثم انقضوا على خزاعة على غرة منهم ، وقتلوا منهم ، فأرسلت خزاعة الى النبى صلى الله عليه وسلم تخبره بما جرى من قريش وبكر حليفتها

أما قريش فانها استيقظت فرأت أنها قد نقضت بفعلتها

هذه شرائط عقد الصلح الذى تم بينها وبين المسلمين ، فندمت على هذه الفارطة التى ارتكبتها بلا ترو ولا تبصر ، فأرسلت اذ ذاك أبا سفيان زعيمها الى المدينة ليوثق عرى الصلح ، ويمد فى أجله ، فخرج حتى جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم وعرض عليه ما جاء به الى المدينة،فقال له عليه الصلاة والسلام : هل كان من حدث بعد . قال : لا . فقال الرسول : فنحن على مدتنا الأولى وصلحنا السابق ، ولم يزد على ذلك . ومن المعلوم أن قريشا بفعلتها قداعتبرت محاربة حسبما تقتضيه شروط الصلحالسابق، وقد شعر زعيمها بما أضمره النبى صلى الله عليه وسلم لقريش،فتوسل اليه ببعض وجوه العرب وزعمائهم فلم يفلح

أما الرسول عليه الصلاة والسلام فانه أمر أصحابه أن يتاهبوا للسفر ، وأخبر أبا بكر بما عزم عليه ، فقال له أبو بكر : أو ليس بينك وبين قريش عهد ؟ قال : نعم ، ولكن غدروا ونقضوا . ثم استنفر الأعراب الذين حول المدينة ، وسار النبى صلى الله عليه وسلم فى عشرة آلاف مقاتل الى مكة ، حتى اذا وصل اليها أمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة ، ودخل هو من أعلاها ، ونادى مناديه : « ألا من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » . نعم انه أهدر دم جماعة وان تعلقوا بأستار الكعبة ، لأنه اعتبرهم،كما يقال فى هذا العصر «مجرمينسياسيين»

واعلم أنه لم يقاتل فى هذا الفتح الا جيش خالد بن الوليد ، ولكن بعد أن تعرضت له قريش ليصدوه عن

دخول مكة ، فقتل منهم أربعة وعشرين رجلا ، وقتل من جيشه اثنان ، فكان دخوله مكة عنوة

ثم أخذ النبى عليه الصلاة والسلام يطهر الكعبة مما كان عليها من الأوثان والأدناس ، ثم خطب فى النـاس ، فبين كثيرا من الاحكام ، ثم ختم خطبته بقوله تعالى : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير »

ومن آدابه صلى الله عليه وسلم وشيمه الكريمة ، ما ورد فى كتب السنة الصحيحة من أن رجلا جاء عقب فتح مكة ، ليبايع النبى عليه الصلاة والسلام ، فجاء وهو يرتعد خوفا، فقال له الرسـول : « هون عليك فانى لست بملك ، انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تاكل القديد »

□

وعلى أثر هـذا الفتح المبين ، وتدمير عصابة الوثنيين ، أخذ النـاس يدخلون فى دين الله أفواجا ، الا بعض قبائل أدركتها حميـة الجاهلية الأولى ، فلقـد اجتمعت أشراف هوازن وثقيف ، وقالوا : لقد فرغ محمد (صلى الله عليـه وسلم) من قتال قومه ، ولا ناهية له عنا ، فلنغزه قبل أن يغزونا . أما النبى صلى الله عليه وسـلم فانه لما بلغه خبر استعدادهم لحربه ، أجمع رأيه على المسير اليهم ، فخرج فى اثنى عشر الفا حتى وصل الى العدو ، فالتحم الجمعان وذلك يوم حنين اذ أعجب المسلمين كثرتهم ، فلم تغن عنهم شيئا، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت حتى ولوا مدبرين ، لولا

ان الله انزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأيدهم بروح منه ، فلم ينته القتـــال حتى جعل الله كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمته هى العليا ، والله عزيز حكيم

هذه هى جل الغزوات وأقواها فى تأييد الاسلام واعلاء كلمته وتقوية سلطانه . فهل رأيت فى جميـع ما قصصته عليك ، وانه لحق ، أن النبى بدأ أحدا بعدوان ؟ كيف وهذا كتاب الله يقول : « لا عدوان الا على الظالمين »

ارجع الى كتب السير ، وجرد نفسك من شوائب التحيز ، فلن تجدن مغمز ابرة للشك فيما قصصته عليك

▭

وخلاصـــة القول أن البصير بالتاريخ ، يشهد معنا أن المصطفى عليه الصـــلاة والسلام لم يسل فى حياته سيفا لارغام أحد من الناس على الدخول فى دينه ، ولكن الهـدى هدى الله يهدى به من يشاء

ما كان للنبى والمؤمنين أن يدعوا الى الله ودينه ، سالكين طرق العسف والارهاب ، وهذا كتاب الله يأمرهم بالحسنى فى الدعوة ، كما قال : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » ، وقال تعـالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن »

انظر الى ابداع كتاب الله فى الرد على أهل الكتاب القائلين بأبوة الله للمسيح ، مع اشتماله على أحسن آداب المحاجة ، حيث يقول : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحـكم

والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولـكن كونوا ربانيين بماكنتم تعلمون الكتاب وبماكنتم تدرسون»

دعوة النبى « ص » عامة لجميع المكلفين

اعتاد النـــاس أن يقيسوا أحكام الله السماوية بقوانين البشر الوضعية ، فتراهم يتشدقون بأن الأحكام يجب أن تكون مناسبة للأزمان ، مختلفة باختــلاف أهلها ، فيراعى فى القوانين والشرائع الأماكن ، وطبقات العالم ، ودرجات ارتقائها فى التحضر ، والفضـــل والتهـذيب ونحوها من الصفات ، التى تتفاضـل فيها الأمم ، وتتفاوت طبقاتهـا باعتبارها ، ثم كأنك بهم وقد طفرت عقولهم ، فحكموا بأن شرائع الاسلام وسننه جاء بها نبى عربى ، لم يعـرف من أحوال الأمم الاخرى الا قليلا جدا، كما أنه لم يعلم ما سيتوالى بعده من الأمم المختلفة ، والأحوال المتباينة، والعصور التى تكاد تكون متباينة فى مقتضياتها ومطالبها وأحكامها

فكانى بأمثال أولئك القوم ، قد أقاموا على أنفسهم الحجة، بانهم لا يفقهون ما يتلى عليهم من كتاب الله تعالى ، يسمعون القرآن ، وانما مثله فيهم كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء ، ويرون آياته بأعينهم ، وانها لا تعمى الابصار، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور

الاسلام صالح لكل زمان

فبما بسطت لك هنا من أمر أولئك القوم ، أريد أن آتيك هنا بوجه كون الدين الاسلامى ، دين الفطرة البشرية التى فطر الناس عليها فى كل زمان ومكان ، صالحا لكل أمة وكل

جيل ، مصلحا لكل من استمسك بسببه المتين ، وعمل بكتابه المبين

اعلم أن دين الله فى كل الأمم واحد لا تختلف أصوله باختلاف الأمم وأحوالها وأزمانها وامكنتها ، وانما الذى يختلف باختلاف ذلك هو الاحكام الفرعية ، يشير الى ذلك قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » وقوله تعالى : « انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده » الآية

جاء الرسول عليه الصلاة والسلام لتقرير الحق والاعتراف به ، وتذكير الناس أن يتمسكوا به ، فما كان له أن يبطل حقا ، أو ينكر صالحا ، أو يجحد نبيا ، أو يستقبح حسنا ، ولكنه جاء مؤذنا فينا بأنه قد آمن بما أنزل الله من كتاب ، وأنه آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله غير مفرق بين أحد من رسله ، كما أخبرنا عليه الصلاة والسلام بأن الله أوحى اليه أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وبأن من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا . فلم يأت النبى صلى الله عليه وسلم ببدع من الشرائع ، ولكن بما قرره الله من الحق ، وأوحى به الى أنبيائه من قبل ، كما قال عز من قائل : « وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » على أننا نعلم ما تقرر فى الاسلام من أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ . فترى من جميع ما تقدم أن الاسلام لم يخالف مقتضى الفطرة السليمة فى اعتبار ما سبق من الشرائع والأخذ بما تقرر من النواميس

العادلة ، ســـــواء ورد بها دين ابراهيم ، أو دين عيسى بن مريم أو غيرهما . نعم ان الاسلام نسخ بعض ما فرض الله على الماضين من الكلف الشاقة ، التى جلبها عليهم عنـادهم وظلمهم ، كما قال تعالى : « فبظلم من الذين هادوا حرمنـا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل » ، فانهم لم يزالوا كذلك ، حتى جاء المصطفى عليه الصلاة والســلام حريصا على المؤمنين رؤوفا بهم رحيما لهم ، فأباح الطيبات من الرزق ، ولم يكلف نفسا الا وسعها ، فكان دينه بذلك أكثر الأديان ملاءمة للطباع ، والعادات ، والقوى البشرية على اختلافها . ولذا كان عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين

ربما قيل كيف ذلك ؟ مع أن أكثر الأحـكام النظامية ، والنواميس التعاملية ، قد وضعها بعد النبى الفقهاء والخلفاء والأمراء ، فلم يحط الاســلام فى بدء نشأته بكل ما يلزم البشر ، من القوانين والأحكام . فنقول : ان جميع ما وضعه الفقهاء والخلفاء والأمراء من الأحكام ، انما بنوه على ما أباح لهم الشرع الشريف ، من الاجتهاد والقياس ، كما قدروه واعتبروه بالأحكام العامة ، التى قررها لهم الشرع ، عـلى ما سنأتى على تفصيله قريبا ، فكل ما جاء مبنيا على قواعد الدين ، فهو دين ، سواء نص عليه الشارع نفســـه ، أو استنبطه أهل الفكر والنظر الصحيح ، وهذا هو كون الدين الاسلامى دين الأبد وختام الأديان . ولنأت لك الآن بشىء من أصول الاسلام لترى منها وجه ما قلناه لك آنفا فتتدبره ، فان للدين ، كما سترى ، قواعد أصلية ثابتة ، تقدر بهـا

الأحكام ، حسبما تقتضيه الاحوال المختلفة ، فى الأزمان المختلفة ، بين الامم المختلفة

اصول الاسلام

(١) الأصل الأول : الاجتهاد ، واعنى به أن تستنبط الأحكام من الكتاب الكريم ، والسنة الصحيحة ، حسبما تصل اليه الأفهام السليمة ، فكل من يعرف لغة القرآن ، لا ينبغي له بحال ما أن يقلد غيره تقليدا متى قدر على فهمه، وفهم الكتب الصحاح فى السنة ، فلم ينسد ، ولن ينسد ، باب الاجتهاد ، برغم أنف من أرادوا أن يحجروا على العقول البشرية ، ويقيموا عليها أوصياء من الأولين ، حتى تسير كما ساروا ، وتقول بما قالوا ، فان السلف الصالح رضى الله عنه ، ما كان مقلدا ولكن تصدى لكتاب الله ، فعمل بما وصل اليه ادراكه ، وبلغه جهده ، ولو كان بعض ذلك خطأ فى الواقع ، فان الله لم يحرم من الأجر أى مجتهد . نعم انه جعل لمن اجتهد فأخطأ أجرا واحدا ، ولمن اجتهد فأصاب أجرين. ان أمر انسداد باب الاجتهاد أمر ابتدع بعدانقراض الصدر الاول منه لأسباب ، منها : انتشار العجمة فى المسلمين ، وعدم استطاعة كثير منهم ، وكانوا لا يحسنون العربية ، أن يفهموا القرآن على وجهه ، ومن الأسبابأيضا فيما أظن ، جهل كثير ممن قالوا بعدم جواز الاجتهادللقرآن الكريم ، وعدممعرفتهم أحكامه ولغته ، والا فكيف عموا عن قوله تعالى : « ولقد يسرنا ـ سهلنا ـ القرآن للذكر ـ للتذكر ـ فهل من مدكر » أى فهل من طالب علم منه ، ومتفهم له فيعان عليه ، أم كيف غفلوا عما قبح الله بهالقدماء

من المشركين وندد عليهم اذ قلدوا آباءهم ، وقصروا أنفسهم على محاكاتهم فيما اعتقدوا ، وفيما عملوا حيث قال : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » ، واذا شئت أن تستقصى ما ورد عن الله من تسفيه أحلام المقلدين، والتشهير بهم ، فعليك بقراءة القرآن الكريم ، فستجد منه ما فيه مقنع ٠ وما يتذكر الا اولو الألباب

(٢) الأصل الثانى : القصد فى الاعمال ، واقامة مالا يشق على النفوس من التكاليف ، فلقد طالما نص القرآن الكريم على أن الله لا يكلف نفسا الا وسعها، فكل ما ليس فى وسع الانسان أن يقوم به ، فلا تكليف فيه ٠ والمراد بالوسع أن يكون العمل بحيث لا يجهد فاعله ، ولا يوقعه فى العناء والتعب ، فان هذا هو ما يفهم من التعبير ، بكلمة وسع التى معناها السعة ٠ وعدم الضيق ٠ ولقد نهانا الله تعالى عن الغلو فى الدين ، فقد ورد فى البخارى : «لن يشاد الدين أحد الا غلبه » وورد فيه أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيئا من الدجلة والقصد» ومن هنا لا ينبغى لمسلم أن يتغالى فى دينه، وأن يتباعد عن المباحات ، وأن يحمل نفسه فوق طاقتها ، فان هذا ليس من الدين فى شىء ٠ واعلم أن المتغالين فى دينهم ، أقرب الناس الى العجز عن القيام به ، واحتمال تكاليفه ، ولقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أحب الأعمال الى الله أدومها وان قل » وقال : «ان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى» وقال تعالى : « ما جعل عليكم فى الدين

من حرج » وقال أيضا : « يريد الله بكم اليسر ولا يريدبكم العسر » . ومما يناسب هذا الموضوع، نازلة كانت موضوع بحث أهل العلم ، ومنتحليه فى مصر ، وذلك لبس القبعة فلقد هاج وماج بعض مدعى العلم على من قال بحل لبسهـا للمسلم. فسلهم بأبيك كيف لهم أن يتقولوا على الله وينسبوا ذلك لدينه . ان القبعة ليست لباسا دينيا وانما هى لباس أمم مختلفة الملل والنحل ، فمنهم النصرانى، ومنهم المجوسى، ومنهم اليهودى ، ومنهم العربى المسلم ، يسكن بعض الجهات الحارة من صحراء أفريقية وغيرها. نعم انها تختلف أشكالها وصورها ، ولكنها ذات اسم واحد ، تندرج تحت نوع واحد

فان كان شبهة أولئك القوم أنها لم تكن معروفة للنبى صلى الله عليه وسلم ولا لسلفه الصالح، قلنا ان هذا لا يقتضى التحريم ، فهل رأى النبى صلى الله عليه وسلم العمائم التى فوق رؤوسنا أو القفاطين التى تتـــدلى أكمامها ، أو الجبب (الفرجيات)

فليفقه أولئك القوم أنهم يقفون ما ليس لهم به عـــلم ، والله تعالى يقول : «ولا تقف ما ليس لك به علم». ان الطيالسة التى استعملها العلماء فى خلافة العباسيين انما حاكوا فيها رهبان اليهود وأحبارهم ، كما أن هـــذه الجبب الواســـعة المستعملة فى مصر ، انما حاكوا فيها علماء وبطارقة بعض المذاهب النصرانية

واعلم أن من موضـــوع هذا الباب ، تحرج بعض شبيبة المسلمين ، أن يؤدوا ما فرضه الله عليهم من الصلاة حتى اذا سألتهم فى ذلك قالوا : اننا لا يمكننا التحرز من النجس ،

لاسيما قطرات البول ، وكثيرا ما يقضي الانسان حاجته ، فلا يجـــد من الماء ما يتطهر به • ومنهم من يقول : ان من المشقة أن أخلع نعلي ، والبسهما عندكل صلاة ، ولا يمكنني أن أصلي بهما حسبما يفتينا علماء المسلمين ، لأنه يغلب على الظن عدم سلامتهما من النجاســـة ، التي تكون عادة في الطرقات • فتري أولئك الفتية يتركون الفريضة التي هي سمة المسلم ومذكرته بالحق تعالى ، وناهيته عن الفحشـاء والمنكر،انصياعا لما أفتاهم به أولئك الجهلة المتغالون والدعاة المعطلون

فمن لي أن يرى أحداث المسلمين ما رواه البيهقي مرفوعا « اذا جاء أحدكم المسجد ، فليقلب نعليـه ، فلينظر أفيهما خبث ، فان وجد فيهما خبثا فليمسحهما بالارض ثم ليصل فيهما » وما رواه البيهقي أيضا عن أم سلمة : « انها سئلت عن المرأة تطيـل ذيلها وتمشي في المكان القـــذر ، فقالت أم سلمة : قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم يطهره ما بعده » وفي رواية له عن أبي هريرة رضي الله عنـه : قلنا يا رسول الله انا نريد المسجد فنطأ الطريق النجسة ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : « الطرق يطهر بعضها بعضا » وفي حديث البيهقي مرفوعا : « اذا وطىء أحدكم بنعليه في الأذى فان التراب له طهور » وقد رأى المالكية أن المعتمـد في مذهبهم أن ازالة النجاسة سنةأعني انها لا تبطل الصلاة بوجودها وان كانت مكروهة معها•فلم لا يصلي ذلك المسلم في نعليه ؟ ولم لا يصـلي وفي سراويله قطرات البول ، ولم لا يسهل عليه التحرز منها ، ولم لا يصلي المسلم في بلاد لم

يستطع أن يستنجى فيها ، أيظنون أن الله يريد بهم العسر مع أن الله يقول فى قرآنه : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »

(٣) الأصل الثالث : من أصول الاسلام أنه لا ضرر ولا ضرار ، فلا يجوز لمسلم أن يفعل ما فيه ضرر لجسمه أو عرضه أو ماله ، كما لا يجوز له أن يضار غيره ، فيدخل فى ذلك تكليف الجسم بما لا يطيق ، وشرب المسكر ، والمقامرة، وايذاء الغير بأى نوع من ضروب الأذى حسبما تعارفه القوم الذين يعيش فيهم ، كقتل النفس ، والسرقة ، والرشوة ، والخداع ، والتمويه ، والتدليس ، وشهادة الزور ... وهلم جرا

لعلك اطلعت على ما قرره الفقهاء من اباحة التخلف عن الجمعة لأسباب كثيرة . منها أن يكون بالانسان بخر ، أو رائحة ثوم أو بصل ، أو به مرض معد كالجذام والبرص ونحوهما من كل ما يضر ، أو تشمئز منه نفوس المصلين . ولا يخفى أن هذا الأصل ينبنى عليه كثير من الأحكام الفرعية ، والنوازل اليومية فى كل عصر

(٤) الأصل الرابع : سد الذرائع واعطاء الوسائل أحكام المقاصد والغايات ، فكل ما أفضى الى مباح فهو مباح، وكل ما وصل بك الى مكروه فهو مكروه وكل ما أوقعك فى محرم فهو محرم ، فكلما أردت أن تحكم على وسيلة بحكم فقدرها بمعيار غايتها . ولنضرب لك مثلا ما جاء به الشرع من اباحة تعدد الزوجات،فان هذه الاباحة قد قيدها الشرع بقيود منها : العدل ، ومنها : أن لا يفضى التزوج الى ضرر

أو محرم أو فساد ، فاذا قسنا ذلك بما يحصل عادة على أثر التعدد من الشقاق ، وافساد ذات البين واغفال الرجل أمر أولاد احدى الزوجات ارضاء لغيرها ، أو قسوته عليهم ، وايذائه لهم ، واذا قدرنا تلك الوسيلة وهي تعدد الزوجات بما تفضى اليه من المضار ، فيمكن الحكم بأنه لا يباح للرجل تزوج غير واحدة

(٥) الاصل الخامس : من أصول الدين الحنيف اعطاء الظن الغالب حكم اليقين المجزوم به ، فاذا غلب على الظن أن العمل مفض الى محرم أو مكروه فانه يُعطى حكم غايته ، فيحرم أو يكره ، فلا يعترض علينا هنا بأن أمر المضارة مع تعدد الزوجات ليس بالأمر المحقق ، حتى ينبنى عليه تحريم ذلك على الرجال ، فاننا على تسليم أنه غير محقق جدلا ، لا يسعنا أن ننكر أنه أمر غالب على الظن حتى يوشك أن يكون يقينا

(٦) الأصل السادس : من أصول الاسلام تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض • وأولى بى هنا أن أقتطف ما جاء لأستاذنا الحكيم الشيخ محمد عبده فى مقالات الاسلام والنصرانية اذ قال ما نصه :

« اتفق أهل الملة الاسلامية الا قليلا ممن لا تنظر اليه ، على أنه اذا تعارض العقل والنقل ، أخذ بما يدل عليه العقل ، وبقى فى النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول ، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر الى الله فى فهمه • والطريقة الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة ، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل ، وبهذا الأصل الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبى صلى الله

عليه وسلم، كل ذلك مهد بين يدى العقل السبيل، وأزيل من أمامه جميع العقبات ، واتسع له المجال الى غير حد • فماذا عسى يبلغ اليه نظر الفيلسوف حتى يذهب الى ما هو أبعد من هذا ، وأى فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم ، اذا لم يسعهم هذا الفضاء ، ان لم يكن فى هـذا متسع لهم فلا وسـعتهم أرض بجبالها ووهادها ، ولا سـماء بأجرامها وابعادها »

ولا يخفى أن تقرير هذا الأصل فى الاسلام ، يدلك دلالة واضحة على أن الدين المحمدى لم يلزم العقل أن يخالف ما يقتضيه نظره وبحثه ، بل انه فوق ذلك قدمه فى العمـل والاعتقاد على ظاهر المنقول

(٧) الأصل السابع : وجوب امتثال ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم شرعا دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الراى

وقد تقدم لنا بيان أن وظيفة الرسل ارشاد العالم الى طريق النجاح والاستقامة ، واقامة العدل فيهم ، وتربيتهم على الاخلاق الفاضلة والشيم الكريمة. وبينا أيضا أن الاسلام يقدم العمل بمقتضى العقل على ظاهر الشرع عند التعارض. وقد علمنا النبى صلى الله عليه وسلم أن نمتثل كل ما جاء به عن الله وانه لا يجب الأخذ بما ورد عنه فى أمور الدنيا، ولنأتك بشيء مما ورد فى ذلك :

(روى) مسلم عن موسى بن طلحة عن أبيه قال : مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم على رؤوس النخل فقال ما يصنع هؤلاء ؟ فقالوا : يلقحون ، يجعلون الذكر فى

الأنثى فتلقح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما اظن يغنى ذلك شيئا . قالوا : فأخبروا بذلك ، فتركوه ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : ان كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فانى انما ظننت ظنا فلا تؤاخذونى بالظن ولكن اذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فاني لن اكذب على الله عز وجل

وروى مسلم أيضا عن رافع بن خديج قال : قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يابرون النخل ، فقال : ما تصنعون ؟ قالوا : كنا نلقحه . قال : لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا . فتركوه فنقصت ، قال فذكروا ذلك له ، فقال : انما انا بشر اذا امرتكم بشىء من دينكم فخذوا به واذا امرتكم بشىء من رايى فانما انا بشر

وروى أيضا عن انس ان النبى صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلقحون ، فقال : لو لم تفعلوا لصلح . قال فخرج شيصا ، فمر بهم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا ، قال : انتم اعلم بامور دنياكم

كانى بك ترى ما حكم به النبى صلى الله عليه وسلم على نفسه ، وهو سيد المنصفين ، صرح لك الرسول بأنه انما هو بشر ، وان اهل كل حرفة او صناعة ادرى بمسائلها وبخفاياها من غيرهم ، وان عصمة الرسل انما تجب فيما اذا بلغوا عن الله شيئا من شرائعه ونواميسه . ومن هنا نعلم انه لا يجب الاخذ بما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم من امور الدنيا واحوالها وحرفها وطبها وصنائعها لان هذا ليس مما يوحى به اليه من الشرائع

(٨) الاصل الثامن : المساواة بين المسلمين فى الاحكام وكذا بينهم وبين جميع من لهم ذمة وعهد ، فان لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، فلا يفضل احد احدا فى اعتبار الشرع الا بالتقوى والعمل الصالح « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » فقد جعل الله الغنى والفقير ، والمأمور ، والأمير ، والعزيز والحقير ، سواء فى احكامه ، سواء فى ذلك الأحكام الدنيوية والاخروية ، واعتبر ذلك بصيغ العموم ، التى تراها فى غير موضع من القرآن الكريم نحو قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » . ومن الغريب أن الفقهاء الذين يدعون فهم كلام الله ، ويظهرون للعالم بسبحهم وسواد موضع السجود من جباههم ، طالما حابوا الملوك والأمراء وتأولوا كتاب الله بما يوافق أغراضهم حرصا منهم على استرضاء من لا يضرون ولا ينفعون ، راضين بما سخط الله عليهم ، اذ فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، فشحنوا كتبهم بما تضارب من الأقوال ، وخالفوا امر القرآن كما فى قوله : « ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات » وقال تعالى : « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء » وقال تعالى : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » واذا اردت ان تأتى على ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الاتفاق وعدم الفشل والاختلاف فعليك بكتب السنة الصحيحة

(٩) الأصل التاسع : ان لا تزر وازرة وزر اخرى ، ففى سورة الطور : « كل امرىء بما كسب رهين » وفى سورة المدثر : « كل نفس بما كسبت رهينة » وقال تعالى : « ولا

تزر وازرة وزر اخرى » وفى سورة النجم : « أن لا تزر وازرة وزر اخرى وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى »

ولا يقال ان من احكام الشريعة ما لا يقتصر على الجانى كما فى دية القتيل فانها على عائلة القاتل ، وكما يؤخذ من قوله تعالى : « واتقوا فتنــة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » لانا نقول فى امر الدية انما الزمت بهــا العائلة فى الشعوب التى لها عصبية قائمة ووحدة وعهد بحيث انهم يكونون يدا واحدة على من سواهم . فاذا اصاب احدهم شىء تعاهد الباقى على الاخذ بثاره او المطالبة بديته ، كما هو الشان بين البدو وكثير من العرب حتى الآن ، ولذلك نجد الفقهاء ينصون على انه لا عاقلة فى الامم التى لا تتضامن قبائلها كالفرس والفرنجة والمصريين وغيرهم من الامم التى لا اثر فيها لتلك اللحمة التى تجعل الحى او البطن او القبيلة كانها رجل واحد فاخذهم الشرع كما اخذ لهم وانتقم منهم كما انتقم لهم ، وهذا من الوجوه التى تبين لك كيف جاء الاسلام مطابقا للأحوال البشرية ، ملائما لها على اختلافها

(١٠) الاصل العاشر ان جميع الزواجر تقدر حسبما يراه الامام او من ينصبه من القضاة للفصل بين الناس طبقا لما يقتضيه العرف العام كما أن من اصوله جواز التحكيم

واعلم أن الشرع الشريف قد حدد بعض العقوبات كجزاء القتل والسرقة ونحوهما وهى قليلة جدا بالنسبة لما ترك الشارع امر تحديده الى الحكام ونوابهم ، فقد اجمع الائمة على أن التعزير مشروع فى كل جناية لا حد فيها ولا كفارة ،

وجوز الامام مالك للامام الحاكم ان يبلغ بالتعزيراعلى درجات الحدود المقدرة

اما التحكيم فقد اجازه الشارع فى الاصول المالية وذلك ان يحكم رجلان بينهما خلاف رجلا من اهل النظر والراى فيما شجر بينهما ، وقد ذهب بعضهم الى اعتبار قول الحكم امرا مقضيا لا يتوقف فى تقريره وثبوته على ان يقرره قاض شرعى ولا امير ولا حاكم

(١١) الاصل الحادى عشر : تقدير كثير من الاحكام بما تعورف بين الناس . ولا يخفى ان هذا الأصل قد وسع دائرة الاحكام الشرعية حتى وسعت تقريبا جميع النوازل على تغاير اشكالها وتباين احوال اربابها ، فمن ذلك امر النفقات الزوجية فانه يراعى فى تقديرها عند الحكم بتقريرها حالة الزوجين ، فرب نفقة تلائم زوجة على انها لا تلائم اخرى ، وقد كثر التعبير بكلمتى « المعروف » و « العرف » فى القرآن العزيز ، وعلق عليهما تقرير كثير من الاحكام ، ومن البديهى انه لا معنى للمعروف والعرف الا ما كان متعارفا مالوفا غير مستنكر ، كما ان المنكر هو ما لا يجرى به عرف والفة فمن الايات المحتوية عليهما قوله تعالى : «طاعة وقول معروف » وقوله : « الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان » وقوله : « الا من امر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس » وقوله : « وعاشروهن بالمعروف » وقوله تعالى : « فامسكوهن بمعروف او سرحوهن بمعروف » وقوله : « واتمروا بينكم بمعروف » وقوله : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف »

وقوله : « وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا » وقوله فى شأن الأوصياء : « ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف » فترى فى هـذه الآيات ، وفى كثير غيرها ، أن الله تعالى فوض أمر تقدير كثير من المعاملات ، الى ما جرى به العرف والعادة من غير تقييد بأهل مكة او اهل المدينة أو غيرهما ، بل أطلق الأمر اطلاقا ، ولا ريب ان العرف يختلف باختلاف اهله وطبقاتهم وما اعتادوه بينهم حسبما يقتضيه الزمان والمكان، واذن كان من القصور تعرض بعض الفقهاء الى تحديد مثل متعة المطلقة او نفقة الزوجة ، وتقدير كثير من الاحكام بما جرى عليه عرف أهل المدينة المنورة محتجين بعلمهم وانهم اعلم الناس بما مات عنه النبى صلى الله عليه وسلم ، كما ان من جمود القريحة وقصور النظر تفسير هذه الكلمات بغير ما يتبادر منها ، فان هذا تخريج للكتاب العربى المبين على غير ما اريد منه. ومما يناسب هذا المقام أن القرآن قد أتى بالفاظ اخرى عامة لتكون صالحة للحمل على ما يناسبها من النوازل والأحوال . فمن ذلك كلمات « الصالحين » و « الصالحات » و « صالحا » فى كثير من الآيات ، فان المراد من مادة الصلاح هنا ما ليس سيئا ، كما يؤخذ من قوله تعالى : « خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا » فان هذه الآية ناطقة بأن كل عمل سيء فهو غير صالح وان كل سيء فهو غير صالح وانه لا صلاح فى سوء ، فيدخل فى ذلك الملك الجائر ، والحاكم الذى اغفل أمر دولته حتى تمكن الضعف منها وجرى الفساد فى عروقها وتمشى الخلل فى أطرافها حتى

أصبحت لا تزداد الا نقصا ولا تعظم الا فسادا ، فلا جرم أن مثل هذا الحاكم لا شائبة صلاح فيه ، ولو قطع الليل تسبيحا وقرآنا . ومن هنا فسر أستاذنا قوله تعالى : « أن الارض يرثها عبادى الصالحون » بأن المراد الصالحون لعمارتها بأن امتثلوا أمر الله فأعدوا لأنفسهم ما استطاعوا من القوة واحسنوا الى انفسهم فكاتفوا الأمم فى الأخذ بوسائل القوة والمجد فلم يلتمسوا المسببات الا من أسبابها ، ولم يأتوا البيوت الا من أبوابها

التوكل غير التقاعد

ومما ينخرط فى هذا الباب خطأ كثير من المسلمين فى فهم التوكل الذى حض عليه القرآن غير مرة اذ قالوا ان التوكل هو تفويض الأمر الى القادر المدبر سبحانه وتعالى وترك الأسباب المألوفة ، ثم أن منهم من اكتفى بعد ذلك بالبلغة من العيش الخشن ولم يستزد حتى مات . ومنهم من اتخذ من أسماء الله مصادر للرزق فظن أن من يذكر اسم الوهاب كذا كذا مرة وهبه الله من المال ما يزيد على حاجته ، ومن قرأ : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » كفاه الله مؤونة السعى لطلب الرزق من معاهده العادية . ولقد كثر هؤلاء فى المسلمين فكثرت بهم المفاسد وانحطت بسببهم الهمم وازال الله عنهم كثيرا من النعم وأن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون

نددت الأمم الغربية وكثير من الشرقيين بالاسلام والمسلمين ، لما نزل بهم من الضعف ، وانحلال العقدة والفشل ، وزعموا ان منشأ ذلك هو أصول الدين الاسلامى ،

محتجين بأعمال اولئك الطوائف من المسلمين ، وبما كذبوا على الله فى تأويل آياته الكريمة نحو : « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » ونحو : « انى توكلت على الله ربى وربكم » ونحو : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » ونحو ما ورد فى الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم : « لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا »

انني لا يسعنى هنا ان افند جميع ما قيل فى هذا المقام لضيقه ، ولكن حسبى ان انبهك الى ان الاستدلال على فساد هذا الدين بما اصاب اهله حجة داحضة ، وبرهان واهن ، فان نظرة قليلة فيما مضى من تاريخ المسلمين يوم كانوا متوكلين على الله تعالى تلجم هؤلاء المتقولين على الاسلام وتلزمهم الحجة بأن ما طرأ على المسلمين بعد ، لم يصبهم الا بعد ان تركوا التوكل على الله فلم يعملوا بما ارشدهم اليه من وجوب الأخذ بالأسباب العادية ، فانه سبحانه وتعالى خلق الأسباب والمسببات ، وخلق ما بينهما من لحمة السببية . فالتماس تلك الأسباب لا ينافى التوكل فى شىء ، بل انه نفس التوكل ، وما تفسير اولئك الناس للتوكل بالتفويض المطلق ، والتقاعد عن الكسب والتحصيل ، مما افضى بهم الى الاضمحلال ، انما منشؤه الجهل بلغة القرآن الكريم

ذلك الرسول وهو سيد المتوكلين يرشدنا بقرآنه ، وبجميع اعماله الى ان لكل شيئا سببا لا يمكن الحصول عليه الا باتخاذ ذلك السبب . اوما سمعت قوله تعالى : « يا أيها

الذين آمنـوا خـذوا حـذركم » وقوله : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ونحو : « وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » الى غير ذلك من الآيات

على انك لو تأملت قليلا فى قوله صلى الله عليه وسلم : لرزقكم كما يرزق الطير ... الحديث ، لتجلى لك الأمر واضحا لا لبس فيه ، فان النبى صلى الله عليـه وسلم لم يقل ـ لرزقكم كما يرزق الطير تمكث فى أوكارها والله يرسل اليها اغذيتها ـ بل قال : تغدو خماصا وتروح بطانا

وفى صحيح البخارى عن على رضى الله تعالى عنـه قال كنا جلوسا مع النبى صلى الله عليه وسلم ومعه عود ينكت به الارض وقال : ما منكم من احد الا وقد كتب مقعده من النار او من الجنـة . فقال رجل من القوم : الا نتكل على كتابنا وندع العمل يا رسول‌الله ! قال : لا ، اعملوا فكل ميسر لما خلق له . ثم قرا : « فأما من‌اعطى واتقى وصدق‌بالحسنى فسنيسره لليسرى »

على‌ان الله سبحانه وتعالى بين لنا ضرورة علاقة المسببات باسبابها صراحة ، وانهـا من الامور الفطرية التى فطرت الممكنات عليها . فقال فى الكتاب العزيز : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » . ومن ذلك أيضا قوله تعالى : « واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا (اى اكثرنا) مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » فليتق الله المسلمون فى دينهم ، وليتباعدوا به عن النقـائص التى

شوهوه بها ، وعرضوه بسببهـا الى طعن الطاعنين وغلو الافكين

والخلاصة ان الدين الاسلامى ، لما احتوى عليه من تلك القواعد الكلية والأصول العامة واشباهها ، جاء صالحا لان يبتغى بواسطته كل خير فى كل زمان ومكان. ومن هنا يتضح لك جليا وجه كون الرسول عليـه الصلاة والسـلام خاتم النبيين ، وان شرعه خاتم الشرائع الالهية ، كما انه لم يخالف فى شيء من اصوله وقواعده سنن الله الفطرية التى فطر العالم عليها ، ولذلك لا حرج علينا فى تسميته « دين الفطرة »

صفات المؤمنين

وبعد فاعلم ان هناك بعض احكام جاء بها الشرع فكانت مطعن الجاهلين من الأمم ، قصار النظر ، فراينا ان نأتى عليها هنا تتميما للغرض الذى وضعنا له هذه العجالة ، الا اننا نريد قبل ذلك ان نأتيك بما ورد فى القرآن الكريم من صفات المؤمنين ، وما يجب ان يكونوا عليه ، واكل اليك بعد ذلك الحكم فى اعتبار مؤمنى هـذا الزمان ، والله يوفقك الى سبيل الرشاد :

(١) قال تعالى فى سورة المائدة خطابا للمؤمنين : « ولا يجرمنكم شنآن قوم ان صـدوكم عن المسجد الحرام ان تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ، واتقوا الله » اى لا يحملنكم بغض قوم صدوكم عن الدخول فى المسجد الحرام ، على ان تعتدوا عليهم ، بل يجب عليكم العـدل ، كمـا يجب عليكم ان تتعاونوا على الاحسـان واتقاء ما يسخط الله من مخالفة اوامره . وفى معنى

ذلك قوله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لاتعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى » فان الله يأمرنا هنا أن لا نطيع ما تكنه صدورنا من بغض احد على الاعتداء عليه ، بل يجب أن يوفى كل ذى حق حقه ، وأن تقدر المعاملة بمعيار العدل ، فانه اقرب للتقوى

(٢) وجاء فى سورة النور « ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما اولئك بالمؤمنين . واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون . وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين . افى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون ان يحيف الله عليهم ورسوله بل اولئك هم الظالمون . انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا واطعنا واولئك هم المفلحون » . نزلت هذه الآية فى قوم ادعوا انهم مؤمنون مذعنون لقضاء الله واحكامه ، حتى اذا دعوا الى شريعته لتفصل بينهم ألقى الشيطان فى ضمائرهم انهم ربما ظلموا فاخذتهم العزة بالاثم ، فاعرضوا عن احكام الله وهم ظالمون ، ولكن اذا كان لهم الحق جاءوا الى المحاكم سراعا مذعنين ، وقد بين الله تعالى هنا ان تلك ليست من صفات المؤمنين فى شيء ، وما كان للمؤمنين الا ان يسمعوا ويطيعوا وينصاعوا الى قضاء الله وأحكامه سواء اكانوا ظالمين ام مظلومين

(٣) وجاء فى افتتاح سورة (المؤمنون) : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون. والذين هم لفروجهم

حافظون » ، الى أن قال : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون » فليت شعرى كيف يكون لمؤمنى هذا الزمان ان يتبجحوا بأنهم فى اعتبار الشرع مؤمنون ، مع أن الله تعالى لم يصف المؤمنين بأنهم الذين عن صلاتهم لاهون ، والذين هم على اللغو مقبلون ، والذين هم للزكاة مانعون ، والذين هم لشهواتهم مرضون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم خائنون

(٤) وجاء فى سورة الأنفال : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا » الى ان قال : « أولئك هم المؤمنون حقا »

(٥) وفى سورة الحجرات : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم » الى ان قال : « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون » فانظر كيف وصف المؤمنين بما وصف ، وانظر الى استعمال الحصر هنا فى قوله « انما » ثم تأكيده ذلك بقوله « أولئك هم الصادقون »

(٦) وجاء فى سورة الممتحنة : « يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ان لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وارجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن » يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن ليس الايمان مجرد النطق بالشهادة والمبايعة على أن محمدا رسول الله ، فان هذا لا يكفى ، ولقد بين الله فى هذه الآية البيعة التى يكون بها المؤمن مؤمنا ،

فتدبرها حتى تعلم مبلغ ايمان الذين قالوا آمنا بأفواههم ، ولم تؤمن قلوبهم . فبأبيك ايها المؤمن اتجد فيما وصف الله به المؤمنين : اتخاذ المسابح ، واطالة اللحى ، واختضاب الشعر ، وتحديب الظهر ، وملازمة الزوايا ؟ الا ان الويل كل الويل لمن حرفوا الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به

الخلاصة : ان من آثار الايمان القلبى الصادق اقامة ماوقع الايمان به ، وملازمة حدوده ، ومخالفة وساوس الصدور ، فمتى رايت من ينقاد الى شيطانه ، ويتكل على غير ربه ويحارب شريعته ، فاعلم انه غير مؤمن . أوما رايت ما قاله تعالى فى قرآنه الكريم : « انه ــ اى الشيطان ــ ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » فكل من وجدت للشيطان سبيلا عليه فاعلم انه غير مؤمن. افيحسب أولئك الضالون انهم على شىء ، وقد جاء فى البخارى عن سفيان بن عيينة قال : ما فى القرآن اشد على من قوله تعالى : « يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما انزل اليكم من ربكم » ــ اى القرآن ــ ومعنى اقامة هذه الكتب امتثال جميع ما فيها ، والاتيان به على وجهه ، فان جاء العمل دون ذلك ، فانه لا يسمى اقامة ، لما حوته تلك الكتب الشريفة من الاحكام ، فكيف لأحد بعد ذلك ان يدعى انه على شىء من الايمان بالله وكتبه ورسله حتى يمتثل ما فيها

ومن هنا يتضح ان الايمان الصادق يستدعى الانقياد والعمل ، وهذا والله اعلم سر ما رواه البخارى فى صحيحه من قوله عليه الصلاة والسلام : « لا يزنى الزانى حين يزنى

وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن »

قال القسطلاني : الايمان هو التصديق بالقلب ، والاعتراف باللسان ـ وتقرره الاعمال الصالحة ـ واجتناب المناهى ، فاذا زنى ، او شرب الخمر ، او سرق ، ذهب نوره وبقى فى الظلمة فان تاب رجع اليه . . . اهـ . ومثال ذلك فى الكتاب الكريم والسنة كثير ، ولكنها لا تعمى الأبصار

هذا والمستقرىء لعبارات القرآن الكريم ، قلما يجد فعلا او وصفا مشتقا من الايمان الا وهو مشفوع بعمل الصالحات ، فمن ذلك قوله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » وقوله : « ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا » وهلم جرا . يريد الله بذلك وهو أعلم ان يوقظ العقول الى ان مجرد معنى الايمان فى اللغة ، اى الاعتقاد ، لا يكفى فى الحاق صاحبه بفئة المؤمنين حتى يقرن اعتقاده بصالح الاعمال . وقد ضمن الله تعالى الأمن والهداية لمن لم يشب ايمانه بظلم ولا جور ، فقال : « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون »

الرق فى الاسلام

كانت القوانين فى الأزمان السالفة من الأوضاع البشرية ، فكان الفرد أوالأفراد يسنون ما شاءوا من النواميس التى لم يراعوا فيها عدلا ولا نصفة ولا مساواة بين افراد الانسان فيما لهم وما عليهم

كان محض ارادة القوى وسلطانه هو القانون والسنن التى يسار على مقتضاها ، فكان عدم تساوى الأفراد فى القوى

الجسمية والعقلية ، الذى اقتضته سنة الكائنات الحية ، هو منشا تسخير القوى للضعيف ، وغلبته عليه ، حتى افضى ذلك بعد الى وجود ناموس عادي اقتضى ان يكون ثمة مالك ومملوك ، وقاهر ومقهور

ان استخدام شخص لآخر ، واستمتاعه بقواه الجسمية بلا اجر ، هو ولا ريب أساس الاسترقاق الذى نشأ مع نشاة الانسان ، فان من استقرأ التاريخ وجد انه لا يكاد يخلو عصر من العصور من وجوده فى اهله ، وجدت اجرامه فى كل جاهلية ، ثم تعدتها الى ما كان معها من الأمم المتحضرة ، وبقيت فيها حتى بعد انقضاء الحاجة اليه وزوالها اصلا ، فلقد عرف الاسترقاق عند اليهود واليونان والرومانيين ، كما عرف بين قدماء الألمان ولقد افرط الاخيرون فى استخدام الرقيق حتى ضرب بهم المثل فى ذلك

ولقد وجد عند اليهود منذ نشأتهم نوعان للاسترقاق : احدهما استرقاق بعض افراد منهم لسبب ارتكابه خطيئة من الخطايا المحظورة شرعا أو فى دين عليه ، وكان لهذا الرقيق أن يتحرر بعد مضى ست سنوات عليه فى خدمة من هو فى ملكه الا اذا فضل البقاء رقيقا . والنوع الآخر : استرقاق غير اليهود ممن قضى عليهم أن يصيبهم شيء من عسف اليهود وحروبهم التى كانوا يقيمونها بلا مسوغ سوى الشره على السيادة وارضاء نفوسهم الخبيثة بما شاءت من الظلم ، فكانوا يبيعونهم كما يباع المتاع ، ويعاملونهم اقبح من معاملة الحيوانات العجم ، سواء فى ذلك العبيد المستخدمة فى المنازل ، وعبيد الحقول والمزارع ، فانهم كانوا يقضون حياتهم

مبغضين ، مهينين ، معزولين ، محقرين ، مسخرين . ثم جاء المسيح عليه السلام ، فلم يمنع الاسترقاق ، ولم يضع حدودا تراعى ولا وسيلة تؤدى يوما ما الى نسخه او تقليله ، نعم انه جاء ببعض كلمات تتعلق بعدم طاعة الرقيق ، وببعض نصائح للسادة ، ليمكنوا الرقيق من تلقى ما جاء به المسيح عليه السلام من قواعد دينية ، على ان كثيرا من الأمم المسيحية كانوا اشره الناس على اتخاذ الرقيق ، واقساهم فى معاملته

وانتشر الاسترقاق بين الرومان ، منذ نشأتهم الاولى ، من غير تفريق بين من كان رومانيا او اجنبيا ، فكانوا يملكونهم اما بحرب أو شراء أو اختطاف ، فلقد كانوا يعتبرونهم متاعا ، وتغالوا فى السيطرة عليهم ، فكان للسيد ان يتصرف فى عبده حتى كان له أن يقتله ، نعم ، أنه قد هذب هذا القانون بعد ، حتى خفف فى الجملة عن الأرقاء أعباء ما كانوا يحتملون ، ولكنهم مع ذلك كانوا تحت سلطة سادتهم المطلقة ، وكان لأمراء الرومان واشرافهم الالوف من الأرقاء ، يستخدمونهم فيما شاءوا ، ويوقعون بهم من الآلام ما شاءوا غير مسئولين عما فعلوا

ان دخول الدين المسيحى فى أوربا لم يقلل من الاسترقاق الا من جهة واحدة ، ذلك ان الرقيق كان يصير حرا بالرهبانية ، وانقطاعه الى خدمة الدين ، على شرط ان لا يظهر له سيد يدعيه فى خلال ثلاث سنوات ، اما من الجهات الاخرى فان الاسترقاق بين مسيحيى أوربا لم يكن باخف بطشا ولا اسلم عاقبة مماكان بين الوثنيين والمجوس ،

ولقد جاء فى جملة قوانينهم المدنية أن الاسترقاق من الأمور الطبيعية ، كما انها قدرت أثمان العبيد ، واعتبرت فى تقديرها ما يحسنه الرقيق من المهن والاعمال ، ومنهـا عدم اباحة التزاوج بين الأرقاء ، ولا بينهم وبين الأحرار ، وقد قدر القانون أشد العقوبات صرامة فيما اذا تزوج الرقيق حرة ، فقضى على الحرة المتزوجة بالعبد بالقتل ، وقضى على الزوج ان يحرق حيا . كان ذلك حال الاسترقاق فى أوربا فى القرن الثالث عشر للمسيح عليه السلام

فلما تقوضت اركان المملكة الرومانيـة ، واسست على انقاضها المملكتان الشرقية والغربية ، لم يقف أمر الاسترقاق عند الحد الذى كان مألوفا عند سلفهم ، بل كان لأشراف الأمتين وامرائهما القول الفصل ، والراى الأعلى والكلمة النافذة فى الفلاحين الذين تحت ايديهم ، فكانوا ملاكهم وحماتهم وسادتهم وحكامهم . فلم يكن فى ذلك الوقت من هو ارقى منهم حكمة واعلى سلطانا سوى نفس الحكومة التى قلما وضعت بين المالك والمملوك شيئا من الحدود

على أن الكنائس فى أوربا قد اتخـذت الأرقاء ، وأباحت لغيرها اتخاذهم ، كما أن كثيرا من النـاس كانوا يذهبون الى استحسان ذلك ، واعتباره من احسن الوسائل لمنع النـاس من السؤال ، ولقطع دابر السارقين قطاع الطرق . (واعلم) ان اقبح انواع الاسترقاق ما كان فى امريكا الشماليـة ، ولم يزل فاشيا فيهـا ، حتى كانت الحروب الدينية ، التى تأججت نارها فى سنة ١٨٦٥ الميلادية نحا كثير من الامريكيين نحو ما كان عند الأمم السالفة

من اليهود والفرس والرومان على ما هم عليـــه من العلم الغزير ، والتحضر الذى لم يسبقوا اليـــه ، فكان الامريكى الأبيض النصرانى يملك الأمة السوداء ، ويولدها البنين على أنه مع ذلك لا يعتبرها أم ولده كما فعل الاسلام ، بل كان لابنه الأبيض أن يبيعها ويبيع ذريتها الذين هم اخوته من صلب ابيه

□

وبالجملة يمكن الحكم بأن الدين النصرانى لم يات بما يقطع دابر الاسترقاق أو ينافيه ، كما أن الأمم المسيحية ، على اختلافها وتباين مشاربها ، كانت لا تبـــالى أن تسترق من شاءت ، وأن تستخدم الرقيق كيف شاءت ، وتعامله كما شاءت ، ولم يزالوا كذلك حتى انتشر امر التعليم فيهم ، فهذب من نفوسهم وأضعف من قسوتهم فتعاهدوا وغيرهم من الأمم المتحضرة على حماية نوع الانسان ، والحيلولة بين أفرادهم ان يسيطر بعضهم على بعض الا بقدر ما تقتضيه النواميس الشرعية

واذ قد فرغنا من بعض المقـــدمات التمهيدية ، فدونك ما فعل الاسلام فى الرقيق والاسترقاق :

سوى الاســـلام بين الأمم من غير اعتبـــار لاختـــلاف أصنافها والوانها ، فسوى بين الأبيض والأسود ، والبدوى والمتحضـــر ، والرعايا والمرعيين ، والرجال والنســـاء ، والمسلمين واليهود والنصارى ، ما داموا فى سلم

انظـر الى المسلمـين وهم فى المســجد يؤدون فريضة

الصلاة ، او فى مكة وهم يحجون البيت الكريم ، او فى المحاكم الشرعية فى صدر الاسلام ، أفتجد فيهم من مقدم ومؤخر ، او من فاضل ومفضول ؟ كيف والله تعالى جعل المؤمنين اخوة كما لم يجعل بينهم تفاوتا الا بقدر ما يتفاضلون به من الحق ، فلقد قال عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع :

« أيها الناس ، انما المؤمنون اخوة ولا يحل لامرىء مال اخيه الا عن طيب نفس ، فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، فانى قد تركت فيكم ما ان اخذتم به — كتاب الله — لن تضلوا بعدى . ايها الناس ان ربكم واحد ، وان اباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى الا بالتقوى »

اين هذا مما يفعله اهل أمريكا ، وهم فى مقدمة الأمم حضارة وعلما ؟ ازدرى البيض منهم السود وامتهنوهم لسواد الوانهم ، وتجنبوهم وحرموهم كثيرا من المزايا التى استمتع بها البيض ، ولطالما نشرت الجرائد ما يفعلون بهم من الفتك والمقت والتجافى عن مخالطتهم ، حتى لقد خصصوا لهم فى مراكب السكك الحديدية مقاصير خاصة بهم ، لا يجوز لهم أن يتجاوزوها الى غيرها

زعم كثير من الناس ، ولا سيما من غير المسلمين ، أن الاسلام اباح للناس اختطاف غيرهم من السود او البيض ، مستدلين على ذلك بما كان يفعله النخاسون من اهل البادية ، واهل السودان ، وكثير من الأتراك ، وقد تقدم لنا انه لا ينبغى الاستدلال على صحة الدين او فساده ، بما يفعل

اهله ، فان هــذا من العبث الذى ينبغى ان تصـــان عقول العقلاء عنه

ان الشرع لا يبيح ان يسترق مسلم اصلا ، ثم انه لا يبيح بعد ذلك الا استرقاق اسرى حرب شرعية ، لم تقم الا لاعلاء كلمة الله تعالى ، مراعى فيهـا ان تكون مسـبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم . فمن هنـا يؤخذ ان اسرى الحروب ، التى اقامها كثير من أمراء المسلمين وخلفائهم ، لا لغرض سوى النهب والسلب والبطش ، مع العدوان على الغير ، لا يجوز استرقاقهم بحال ، سواء اكانوا مسلمين أم غيرهم ، كتابيين او وثنيين أو مجوسا

اما استرقاق غير المحاربين ، ممن لا كتاب لهم ولا شبهة كتاب ، كعبدة الأوثان ، فقال مالك والشافعى واحمـد فى احدى روايتيه ان ذلك لا يجوز مطلقا . فماذا ترى فيمن يذهبون الى الصحارى ويختطفون من وصلت اليه ايديهم من السودان وغيرهم ، ثم يجلبونهم كمـا يجلبـون المتاع ، فيعرضونهم فى الأسواق عرض الحيوانات العجم ، وكثـير منهم مسلمون ؟ وماذا ترى فى كثـير من الأمراء وشيوخ المسلمين ، يجيئون اليهم ويسومونهم كما يسوم المتاع ، ثم يسوقونهم الى بيوتهم اما للخدمة واما للافتراش ؟ وماذا ترى فى الذرية التى ينتجهـا افتراش بنى على هــذا الاسترقاق الفاسد ؟ ان الدين لبرىء مما جنى عليه اولئك الطغـاة الجهـلة ، وطاهر مما الصقوه به من ذلك الدنس والرجس ، قد سولت لهم نفوسهم الخبيثـة ما شاءت ان تسول ، فافتاتوا على الله ونسبوا اليه ما نسبوا ، متقولين

عليه ، وهذا قرآنه الكريم قائم ناطق بتكذيبهم وتأنيبهم

(واعلم) ان هناك نوعا من الاسترقاق ، فشا فى المسلمين ايضا ، وهو لا يبيحه الشرع ايضا ، ذلك ان بعض امم آسيا كالقوقاز وغيرهم ، قد يحدو بهم الفقر المدقع ، الى جلب بناتهم بايديهم الى اسواق بعض المدن الاسلامية وهن صغار جدا ليبيعوهن الى الأمراء والمثرين من الرجال ، ولقد يكون منهن المراهقات والنساء ، حتى اذا صارت احداهن فى ملك احد استباح منها واتخذها فراشا ، يخادع الله بما عقده من البيعة الفاسدة ، وما يخدع الا نفسه من حيث لا يشعر ، فيظل طول حياته مستبيحا ما حرمه الاسلام ، ويدخل فى دينه ما املته عليه وساوس الأوهام

وقد كرم الاسلام الأسرى فشرع ان كل من أسلم من الأسرى عصم نفسه وماله ، وان مجرد دخول العدو المحارب دار الاسلام امان له من السبى عند مالك والشافعى واحمد ابن حنبل

وان للرقيق فى الاسلام ان يتزوج بنت سيده ، فينقلب بذلك سيد البيت

اين هذا مما سبق لنا نقله ، من قوانين اوربا فى القرن الثالث عشر ، من تحريم التزاوج بين الأرقاء ، وكذا بينهم وبين الأحرار وانه يجب قتل المراة التى يتزوجها عبد ، كما يجب احراقه حيا

وقد وضع الاسلام من الأصول والنواميس ، ما كاد يقضى على الاسترقاق ، لولا ان الامم العربية وغيرها كانت

اذ ذاك على ما نعلم فى امر الاسترقاق ، وبديهى انه لا يمكن ان يزيل النبى عليه الصلاة والسلام فى بضع سنين امرا الفته النفوس ، واستولى عليها ذلك الاستيلاء . لذلك كان النبى عليه الصلاة والسلام يرغب الناس فى العتق ، كما جعل هناك أحوالا يلزم فيها السيد بالاعتاق . فمن ذلك :

(١) اخبار النبى صلى الله عليه وسلم اصحابه غير مرة بأن العتق من اجل العبادة ، واقربها قبولا عند الله

(٢) انه جعل كفارة لبعض الخطايا والحنث فى بعض الأيمان

(٣) أن مكاتبة العبد مستحبة بالاجماع ، وللامام احمد فى رواية انها واجبة متى دعا العبد سيده اليها على قدر قيمته أو اكثر ، وأن للعبد الاستغلال ، ليحصل على مايدفعه لسيده من نجوم الكتابة ، وان على سيده أن يتركه يشتغل أين شاء وفيما شاء

(٤) اذا امتنع المكاتب عن الأداء ومعه ما بقى ، فالحنفية تجبره على الأداء . واذا لم يكن معه مال ، ولكنه قادر على الكسب ، فالمالكية تجبره على الكسب ، لأنه ليس له تعجيز نفسه عنه ما دام قادرا عليه

(٥) يراعى فى عقد الكتابة حالة الرقيق ، فاقل وعد من السيد ، أو اقل احتمال للوعد بالتحرير ، يجعل التحرير ضروريا

(٦) اتفق الأئمة على انه لو كان فى يد انسان غلام بالغ عاقل وادعى عليه انه عبده فكذبه الغلام ، فالقول قول المكذب مع يمينه انه حر . فترى فى هذه الصورة أن قاعدة « البينة على المدعى واليمين على من انكر » قد خولفت

مراعاة لحالة الرقيق ، فلم يطلب الشرع من المدعى البينة أولا بل جعل القول للمنكر بيمينه ، ولا يخفى ما يدل عليه هذا من شدة حرص الشارع على تحرير الرقاب ، ما وجد لذلك سبيلا

(٧) قد جعل الشارع من مصارف الزكاة عتق الرقاب بأن يعطى الحاكم للرقيق المكاتب ما يستعين به على فك رقبته ، أو ان يشترى الحاكم العبيد المملوكين ويعتقهم

(٨) ان من افترش امة ، واتى منها بأولاد ، فهى أم ولده لا يجوز له ان يبيعها ، ولكنها لا تتحرر تماما الا بعد موته

(٩) استوصى النبى صلى الله عليه وسلم بالأرقاء خيرا ، فجعل حقوق العبد على سيده كحقوق المترافقين والمتجاورين والمسافرين ، فلا يجوز للسيد ان يكلف رقيقه ما لا يطيق من العمل ، او ان يدعوه بألقاب الازدراء والتحقير ، كما لا يجوز للسادة ان يفرقوا بين انفسهم وبين عبيدهم فى المأكل والملبس ونحوهما

المرأة فى نظر الإسلام

شذرات

قبل التكلم عن المرأة فى الاسلام ، نأتيك بشذرات تبين لك شأنها قبل ظهور ذلك الدين الحنيف فى الامم المختلفة ، ثم نردف ذلك ببيان ما منح الله المرأة فى الاســلام ، غير معولين فى جميع ذلك الا على كتاب الله تعالى والسنة الصحيحة

كلنا يعلم ما كانت عليه أمة الفرس من الحضارة القديمة، كما نعلم ما اشتهر به بعض ملوك فارس من العدل والفضل، حتى ضربت بهم الأمثال · أفأدلك على ما كانت المرأة تعامل به فيهم ؟ كان للرجل أن يتزوج من النساء من شاء ، من غير وقوف عند حد ، ولا تقيد بشرط ، ولا سؤال عن حق ، ولقد كان له أيضا أن يتخذ من الأخدان من شاء

فاذا اعتبرنا العرب الذين ظهر فيهم النبى صلى الله عليه وسلم ، نجد حالة المرأة فيهم أبشع وأشنع ، فلقد كانت المرأة بين وثنيي العرب معتبرة ســلعة محضة ، فاذا مات رجلها ورثت فيما يورث ، حتى كان للابن الوارث أن يفترش زوجة ابيه او أمته ، كما كان له أن يهبهـا لمن شاء ، وأن يبيعها لمن شاء ، هذا عند وثنيى العرب

ولم تكن منزلة البنت اليهودية عند أبيها أرفع شأنا من ملك اليمين ، فلقد كان للأب أن يبيع ابنته قبل بلوغها ، كما كان لابنه الذكر أن يفعل ذلك

وقدكانت العرب تئد البنات ، اما من فاقة أو خشيةعار ياتينه متى كبرن ، حتى قال قائلهم « دفن البنات من المكرمات »

هكذا كان شان المرأة بين أكثر قبائل العرب وغيرهم ، فلم تكن بين الفرس والرومان الشرقيين أهنأ بالا ولا أعز شأنا ولا أكثر حرمة منها بين العرب

ومن المعلوم أن أحسن القوانين مالا يشتمل على التضييق، ويلائم فريقا دون فريق ، وكذلك جاء القرآن الكريم والسنة المحمدية بتلك النواميس التى تلائم ، بلا ريب ، أرقى الامم تحضراً وأصدقهم فكرا ، كما تلائم وتنطبق على الامم الذين لا يزالون فى مهد الفطرة الأولى

المساواة

ساوى الاسلام بين الذكران والاناث فى جميع التكاليف الشرعية ، الا فى أحوال خاصة قليلة ، كما ساوى بين الصنفين فى الحقوق المدنية ، وجعل لكل أن يتقاضى حقه من الآخر ، وأن يبيع ويشترى ويعقد ما شاء من العقود ، ما دام عاقلا رشيدا

جاء بذلك الاسلام منذ ثلاثة عشر قرنا ، فتمتعت النساء بما ملكت أيمانهن من أموال وأعيان من غير توقف على اذن زوج أو تقرير مسيطر ، مع أن معظم أمم أوربا لم يطلقوا العنان للمرأة أن تتصرف فيما ملكت يدها ، اللهم الا ما أدخلته الحكومة الانجليزية ، وقليل غيرها من أهل أوربا ، منذ خمسين سنة ، من القوانين التى خولت للمرأة فيها

شيئا من ذلك ، ولم يكن هذا معروفا فيهم من قبل

وقد كانت المرأة لا تكاد تمتـــاز عن الحيوانات العجم ، لا تقرأ ، ولا تفهم ، ولا تســـتفتى فى أمر ، ولا تقضى ولا تأمر ولا تنهى ، فهلا علمت ما فعل الاســـلام ؟ جاء النبى فكان فى بيته أحسن أسوة للمســلمين ، وما زال صلى الله عليه وسلم تنزل عليــه الآيات فى شأن النســـاء ، حتى أصبحن « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف »

أوجب الله تعالى تعلم العلم على كل مسلم ومسلمة ، كما أوجب على أمهات المؤمنين أن يعلمن الناس ذكورهم وأناثهم « واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة » فكان الرجل « وكان ما كان فى الجاهلية » يأتى اليهن ويستفتيهن ويتلقى ما يلقينه من أحكام الله ومكارم الأخـلاق ، وبذلك أخذت عقول الرجال ترجع الى رشدها ، وتعلم أن لا دخل لاختلاف الصنف ، أو الشعوب أو الأمم ، فى التفاضل . فقد جعل الله التفاضل بين الكائنات تابعا لما فيها من الفضل والمزايا والخصيصات « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » لم يقل الله ان الرجال قوامون على النســـاء ، مسيطرون عليهن بمقتضى الفطرة البشرية ، أو لأن عقولهم تخالف عقولهن ، ولكن الله جعل انفاق الرجل على المرأة من علل الفضل ، كما جعل من العلل أيضا ما قد يمنح الله القوامين على النساء من المزايا ، ولولا ذلك ما كان للرجل قوامة عــلى المرأة ، ومن ذا الذى يستطيع أن يعتقد فضل بدوى عقله أخلى من أرض البادية على المرأة التى وصلت الليالى بالايام فى طلب العلم ، حتى

تثقف عقلها وتهذبت نفسها . كلا ان الله لم يجعل التفاضل الا حيث يكون ما منح من الفضل كما قال : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وقال : « هل يستوى الأعمى والبصير . أم هل تستوى الظلمات والنور »

أباح الشرع للمراة،ما دامت من أهل التصرف فى مالها، أن تتزوج بنفسها ، وأن توكل غيرها فى زواجها ، ولا اعتراض عليها الا أن تضع المرأة نفسها فى يد غير كفء ، فهناك يعترض الولى عليها ويطلب من القاضى فسخ زواجها

جعل الشارع للمرأة أن تشترط فى صلب عقدها أن يكون أمرها بيدها تطلق نفسها من الرجل متى شاءت

ففى الدر « أن تزوجها على أن أمرها بيدها صح » قال ابن عابدين : « هذا مقيد بما اذا ابتدأت المرأة فقالت : زوجتك نفسى على أن أمرى بيدى ، فقال الزوج : قبلت »

ولقد يعترض على قسمة المواريث من لم يتدبر ، اذ قضى للمرأة أن يكون لها نصف نصيب الرجل فيتوهم أن فى هذا اجحافا بحقوقها ، ولكنا عند التأمل نجدها قد زاد حظها وجل نصيبها ، وذلك أن المرأة كما سيأتى عالة على الرجل فى معظم أدوار حياتها ، فيجب عليه شرعا أن ينفق عليها ، ويأتى اليها بمطالبها ، كما يقتضيه عرف القبيل الذى هما فيه . فاذا كلف الشرع القوامين عليها من الرجال أن يقوموا بجميع حاجاتها بالمعروف ، فتقدير الشارع لها حظا من المواريث غاية فى الرأفة بها ورعى جانبها والعناية بشأنها

فأين حجر الاسلام على المرأة وأين التضييق عليها من هذه المسامحة ؟

تعدد الزوجات فى الاسلام

تقدم لنا التلميح الى ما حشا به الأوربيون كتبهم من الطعن فى الاسلام ، متمسكين بما أباحته الشريعة من اباحة تزوج اكثر من واحدة ، ولو كانوا يعرفون العربية ، ويفقهون كتاب الله وقواعده ، ما استطاعوا ان يلصقوا بالاسلام ما ليس من شيمه

ان النقائص التى مثلت بالاسلام فى اعين غير أهله ، انما نشأت من اعتبار اعمال الخلف الصالح ، ميزانا لتقدر بها قوانين الشرع ونواميسه ، فمن قائل بسد باب الاجتهاد ، ومن امام أو خليفة قضت عليه أغراضه البهيمية ان ينتهك حرمات الله ثم يحارب الله فينسب اليه ما ليس من دينه فى شيء ، ومن عالم اشترى الحياة الدنيا بالآخرة ، فأفتى بما يطابق أهواء ملك أو أمير تذرعا الى الزلفى منه ، ومن أحمق ارعن لم يرض من اليسر ما رضى الله لعباده فشط بالناس واعتسف بهم ، حتى ضاقت نفوسهم ، وايقنوا بالعجز عن احتمال تكاليف الدين فانقطعوا عنه ظانين بالدين الظنون

جاء القرآن فأباح أن يتزوج الانسان مثنى وثلاث ورباع ، ولكن الله تعالى يقول : « فان خفتم الا تعدلوا فواحدة » فتراه قد شرط اباحة تعدد الزوجات بالعدل ، كما جعل مجرد خوف الجور والظلم سببا كافيا فى تحريم التعدد ، ثم نراه قد اعتبر البشر عاجزين عن العدل بين النساء ولو حرصوا . فما بالنا مع جميع ذلك نرى كثيرا من المسلمين يفقهون بعض آيات الكتاب دون بعض ؟ عجبا اغفل الناس

كثيرا من القواعد الاسلامية التى يجب تقدير الاعمال بهـا وزنة التصرفات الانسانية بميزانها

واعلم ان المعتزلة ، وهم كما تعلم من المسلمين ، يقولون بعدم جواز ان يتزوج الرجل ثانية ما دامت الأولى فى عصمته ، كما ذكره الامير على فى كتابه «سر الاسلام» وما ذلك الا لانهم تتبعوا ما يجلبه ذلك من المفاسد والمضارة ، وعرفوا ان من أصول الشريعة المحمدية اعطاء الوسائل ما للغايات من الأحكام ، فرأوا آثار تعدد الزوجات كثيرة سيئة لا يستحسنها عقل ، ولا يرضى بها شرع فحكموا بتحريمه

لم يصرح القرآن بتحريم تعدد الزوجات بتاتا ، وذلك لانه أرسل رسوله للناس كافة بشيرا ونذيرا ، ولا ريب أن ثمة أحوالا يحسن أو يجب فيها تعدد الزوجات ، ولا يمكن لأحد الفرار من الاعتراف بوجود كثير من الأحوال التى تقتضى ذلك . ولأضرب لك مثلا : رجلا تزوج امراة فاصابها مرض مزمن ، ورجلا تزوج امراته فكان يستمر معها الحيض الى خمسة عشر يوما ، ورجلا تكره امراته المباشرة فى كثير من أشهر الحمل ، وهلم جرا . فأمثال هؤلاء الرجال اما أن يصبروا مع العنت والشقة ، وقليل الصابرون ، واما ان يأتوا الفاحشة ، واولئك هم الخاطئون

انى لأرى ، كما يرى كل عاقل ، أن تعدد الزوجات بالغة مثالبه ما بلغت ، أسلم عاقبة من اتيان الفاحشة ، ومن الشواهد التى يحسن ذكرها ما نقله الأمير على فى كتابه « سر الاسلام » عن السيدة غوردون الانجليزية : انها تاملت فى أحوال كثير من البلاد الاسلامية او الشرقية اجمالا ، فرات

ان تعدد الزوجات اكثر ما يكون فى البقاع التى تكثر فيها الفاقة ، وتقل فيها المرافق ، فيصعب على النساء الاعتماد على انفسهن فى تحصيل المرافق والأخذ بأسباب العيش ، وقد رات تلك السيدة ان هذه احدى الضرورات التى يخول معها التعدد

جمعتنى المصادفات برجل أسبانى قابلته فى لندن ، فمكثنا نتحادث فى كثير من مسائل الدين الاسلامى ، فمما خضنا فيه امر تعدد الزوجات ، فقال : انه يتمنى لو كان مسلما فيتزوج امراة غير زوجته . فسألته فى ذلك فقال : ان امراتى قد اصيبت بجنون ، وها هى تلك تعالج فى بيمارستان « مجريط » ولها على ذلك سنون كثيرة . ولقد اضطرنى الامر ان اتخذ بعض الأخدان لعدم استطاعتى التزوج بأخرى ، فلو ان هذا كان مباحا لنا لكان لى عقب شرعى يرثنى فيما لدى من المال الكثير ، ويكون لى قرة عين وخير رفيق اطمئن به واسكن اليه

ثم تقابلت فى اكسفورد مع دكتور فاضل ، وقد جرت عادة الانجليز انهم متى راوا غريبا سالوه فى جميع ما يلج فى صدورهم . سالنى ذلك الدكتور عن وجه تعدد الزوجات فى الاسلام ، وذكر انه يستقبحه ، فما زلت به حتى كاد يذعن لما أبديت له من الأسباب ، ثم قال : اننى اكاد أرى وجه ما تقوله ، ولكن لى كلمة فى نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فقلت : ما هى ؟ قال : ان منزلة النبوة التى ادعاها كان يجب ان تحول بينه وبين اكثاره من عدد الزوجات . فعند ذلك قلت له : اننى يا سيدى كثير التجارب ، وقد رايت فى

الانجليز وفى المصريين والأتراك والفرنسيس وغيرهم من الأمم من لا يقنع بواحدة ولا يعكف على ما احل الله ما دام يملك شيئا من المال ، وهذا ايها السيد احد الأسباب فى قلة ذرارى الأغنياء والمثرين وكثرة عيال الفقراء والمعوزين ، ولو ملكت ايديهم فضلا من المال والسعة لما قنعوا بما اوتوا . افتنكر بعد ذلك ان تعدد الزوجات أدعى للعفة والحصانة ، واضمن لنمو بنى الانسان ؟ فما كان من ذلك الفاضل الا ان قال : ان معظم ما قلته حق لا مراء فيه. ثم ذكرت له أسباب اكثار النبى من النساء مما سنأتى عليه بعد ، وانما لم ابدأ بذكر تلك الأسباب لأننى قصدت الزامه من اول الأمر بضرورة تعدد الزوجات فى بعض الأوقات اخذا بما عليه الناس فى احوالهم الدنيوية ، التى لا يسعه انكار شىء منها ، فلما اضعفت من قوة تعصبه ، وقللت من حدته ، اخذت اسرد له الأسباب التى لم يجد لانكار شىء منها سبيلا

□

والخلاصة ان اعتبار كون تعدد الزوجات مصدرا لكثير من المفاسد ، انما هو امر اضافى ، ولا يمكن اتخاذه حكما عاما ، فان ذلك يختلف باختلاف الأمم والأزمنة والأمكنة والاحوال . انظر الى ما كان معروفا فى بدء النصرانية من استقباح الزواج راسا وتقبيح المتزوجين وتفضيل الرهبانية

ولقد قضت الرهبانية فى الأعصر الخالية ان يقبر فى الديور كثير من العقول الذكية ، التى لم يجن منها عالم الحياة الدنيا اقل فائدة ، اما منشأ ذلك فقد كان اما تقليدا للمسيح عليه

السلام ، او لبعض اسباب اخرى كالتفرغ المطلق الى عبادة الحق تعالى ، ولا يزال قسوس الكاثوليك يذهبون ذلك المذهب ، ويزدرون المتزوج لما دنس نفسه بميله الى الشهوات الحيوانية ، قالوا : ان المسيح عليه السلام روح الله ، فكان اقدر الناس على غلبة شهواته ، قارنوا بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم القائل : « لا رهبانية فى الاسلام » ثم انتهى بهم القياس الى الحط من كرامة الأخير . وقالوا : شتان بين من غلب نفسه ، وبين من استرسل مع هواها فارضاها ، ولا يخفى بطلان هذه القضية فانه لا تناف بين الصلاح والزواج . على ان تقليد المسيح فى رهبانيته لا يبلغ غايته الا بخراب البيوت وتلاشى الأمم وانقراض النوع الانسانى ، ولا يخفى ان هذا ينافى مقتضيات العمران ، ومطالب نظام الأكوان

لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم فيما اتاه بدعا من الرسل ، فان موسى وداود عليهما السلام تزوجا كثيرا من النساء ، وهما الرسولان اللذان لا يسع نصرانيا ولا يهوديا انكار نبوتهما ، او احتقار ما أتيا به من الصحف السماوية الاولى

زوجات النبى

هذا ونذكر لك فى زوجات المصطفى صلى الله عليه وسلم ما فيه غناء ان شاء الله تعالى ، فنقول : اعلم ان اكثر المسلمين اتفقوا على أن للنبى صلى الله عليه وسلم من الخصائص ، ما لم يكن لغيره من امته ، وذكروا اشياء منها تجاوزه بالزوجات العدد الذى اباحه لغيره بشروطه ، ولا

يخفى ان مثل هذا لا يكفى لاقناع غير المسلمين ، الذين نددوا بالنبى عليه الصلاة والسلام ، ولم يجدوا فى كتب المسلمين ما ينهض حجة لهم ، اللهم الا قليلا ممن ايده الله بروح منه ، فنريد ان نذكر لك من اسباب ذلك ما فيه مقنع ان شاء الله

فاعلم ان اول ازواج النبى صلى الله عليه وسلم خديجة تزوجها قبل البعثة وهو ابن خمس وعشرين على انها كانت بنت اربعين سنة

قضى النبى صلى الله عليه وسلم شبيبته ، وطائفة من كهولته ، ولا زوج له الا خديجة ، ماتت رضى الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنوات ، بعد أن مكثت مع النبى صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة ولدت له فيها جميع اولاده ، ما عدا ابراهيم ، فلم يتزوج النبى قبل بعثته من شاء ، وهو فى ريعان شبابه ، وقد كانت العرب ، على ما علمت ، يكثرون من الزوجات حتى ان منهم من كان تحته العشرون فى وقت واحد ، فلو كان هناك سلطان للهوى ، على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، لاتخذ من الزوجات من شاء ، وهو فى مقتبل شبابه ، واستكمال قواه الطبيعية ، لا شرع يحول بينه وبين بغيته ، ولا عادة تمنعه مراعاتها ، من قضاء مآربه ، ولا سيما وقد كان مرغوبا فيه بين الناس لما اشتهر به من مكارم اخلاقه ، وجميل خصاله

بعد أن ماتت خديجة ببضعة اشهر ، تزوج النبى صلى الله عليه وسلم سودة ، وكانت ايما مات عنها زوجها عقب رجوعه من الهجرة الثانية الى الحبشة ، وكانت قد اسلمت رضى الله عنها وخالفت بنى عمها واقاربها ، فما اجمل

ما عمله النبى من الرحمة بها وتعويضها خيرا مما فقدت ، فقد مات عنها زوجها ولا حامى لها دون اقاربها الذين أسلمت رغم انوفهم ، فكان تزوج النبى بها حماية لها أن تصل اليها يد الأذى ، كما كان ذلك اكبر سلوان لها على فقد زوجها

مات أبو طالب لشهر من موت خديجة ، ففقد النبى بموته رجلا كان يناضل عنه ، ويدفع عنه اعداءه ما استطاع ، فاخذ الأمر اذ ذاك يشتد على النبى صلى الله عليه وسلم ، فراى ان يوثق الرباط بينه وبين قريش ، فعقد على عائشة ، وهى اذ ذاك بنت سبع ، فان اباها الصديق رضى الله عنه كان صدرا وجيها فى قريش ، واسع المال ، عزيز الجانب ، يدلك على ذلك مسارعة النبى صلى الله عليه وسلم بالعقد عليها ، مع انها قاصر وانه لم يبن بها الا بعد ذلك بنحو سنتين ، فلم تكن وقت ذاك مطمعا لقضاء شىء من المآرب الشهوية ، حتى يطمح اليها نظر النبى او غيره

ومن هذا القبيل تزوجه صلى الله عليه وسلم بأم حبيبة بنت ابى سفيان ، وكانت ببلاد الحبشة فى الهجرة الثانية . مات عنها زوجها هناك ، وما هو الا ان انقضت عدتها حتى ابلغها النجاشى انه قد كتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليزوجه اياها

كل من اطلع على التاريخ يعلم مقدار ما كان بين النبى وبين بنى امية من العداء ، كما يعلم انه قد كان ابو سفيان الد بنى امية عداوة لرسول الله والمسلمين ، فانه لم يدخل فى الاسلام الا بعد ان نال المسلمين ما نالهم من اذاه الشديد،

فتزوج النبى عليه السلام أم حبيبة ليكون بينه وبين الد اعدائه لحمة نسب ، تكون له فى الجملة وسيلة الى حملهم على تقليل الأذى عنه ، كما انه صلى الله عليه وسلم اختارها لنفسه ، لأنها خرجت من ديارها فارة بدينها ، ففى عدم حمايتها ووقايتها ، وقد مات زوجها ، تعريض لها الى مقاساة المصاعب والأهوال ، وانما اختارها النبى لنفسه لمكانتها فى قومها ، فلو انها زوجت بغير كفء لاتخذ بنو امية ذلك شبهة يوغرون بها صدور بيوتاتهم ، ويحرشونهم بالمسلمين على قلتهم وضعفهم

وكانت الأسرى من النساء يتخذن اماء لا يسوى بينهن وبين الحرائر فى شىء ، كما انهن قلما اعتقن ، فاراد النبى ان يعلم المسلمين بالعمل ما ينبغى ان يصنعوا بما فى ايديهم من الأسرى من التحرير والكرامة ، وان يجعلن سيدات البيوت ، فمن ذلك تزوجه بجويرية . قالت عائشة رضى الله عنها : أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبى بنى المصطلق فاخرج الخمس منه ثم قسمه بين الناس فأعطى الفارس سهمين والرجل سهما ، فوقعت جويرية بنت الحرث بن ابى ضرار فى سهم ثابت بن قيس ، فجاءت الى الرسول فقالت : يا رسول الله انا جويرية بنت الحرث سيد قومه ، وقد اصابنى من الأمر ما قد علمت ، وقد كاتبنى ثابت على تسع اواق فاعنى على فكاكى ، فقال : أوخير من ذلك ، فقالت : ما هو ؟ فقال : أؤدى عنك كتابتك وأتزوجك ، فقالت : نعم يا رسول الله فقال : قد فعلت ، وخرج الخبر الى الناس ، فقالوا : اصهار رسول الله يسترقون ، فأعتقوا

ما كان فى أيديهم من سبى بنى المصطلق ، فبلغ عتقهم مائة بيت بتزوجه عليه السلام اياها . فانظرالى ما قصد الرسول عليه السلام من تزوجه بها

ومن ذلك ايضا تزوجه بصفيـة بنت حيى ، وكانت من اشراف بيوت اليهود ، ثم صارت سبيا بعد وقعة خيبر ، وكانت مما اصطفاه صلى الله عليه وسلم من الغنائم

وعن ابراهيم بن جعفر عن أبيه قال : لما دخلت صفية على النبى صلى الله عليه وسلم قال لها : لم يزل ابوك من اشد اليهود لى عداوة حتى قتله الله . فقالت يا رسول الله : ان الله يقول فى كتابه « ولا تزر وازرة وزر أخرى » فقال لها رسول الله : « اختـارى فان اخترت الاسـلام امسكتك لنفسى ، وان اخترت اليهـودية فعسى ان اعتقك فتلحقى بقومك » . فقالت : « يا رسول الله ، لقد هويت الاسلام ، وصدقت بك قبل أن تدعونى حيث صرت الى رحلك وما لى فى اليهودية ارب ، وما لى فيها ولد ولا أخ ، وخيرتنى الكفر والاسلام فالله ورسوله أحب الى من العتق ، وان ارجع الى قومى . قال فامسكها رسول الله لنفسه ، وقد رضيتـه بعلا ، مع انه كان لها أن ترجع الى اهلها بعد العتق

هذا واعلم ان امر الثأر فى الجاهلية معروف ، وقد حاول كثير من الانبياء كموسى والسيد المسيح وغيرهما حقن الدماء ، ونسخ تلك العادة القبيحة ، فلم يفلحوا ، لما أن ذلك كان امرا راسخا فى نفوس العرب أشربته قلوبهم فلم ينجع فيهم دواء ، حتى اتى النبى فجعل من عقود انكحته ما ربط كثيرا من القبائل بعضها الى بعض ، فبذا قرب ما بينها ، وازال

كثيرا من احقادها ، واطفا سورة ما فى صدورها من الغل والضغائن ، حتى قلت فى ايامه صلى الله عليه وسلم الغارات ، وكاد يتناسى امر الثارات

زواج النبى بامراة زيد

هذا وتتميما لهذا الموضوع نريد ان نذكر كلمة فى تزوج النبى صلى الله عليه وسلم بزينب امراة مولاه زيد :

قال الشيخ محمد عبده (١) ان زينب كانت بنت عمة النبى صلى الله عليه وسلم ، ربيت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت من والدها لاول الامر ، حتى انه اختارها لمولاه زوجة مع ابائها واباء اخيها وعد هذا عصيانا ، ولا زال كذلك حتى نزل فى شانها آية : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا »

ولو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله عليه وسلم لكان اقوى سلطان عليه جمال البكر فى روائه ونضرة جدته ، وقد كان يراها لم يكن بينه وبينها حجاب ، ولا يخفى عليه شىء من محاسنها الظاهرة ، فكيف يمتد نظره اليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد ان صارت زوجة لعبد من عبيده انعم الله عليه بالعتق والحرية ؟ لم يعرف فيما يغلب على مالوف البشر ان تعظم شهوة القريب وولعه بالقريب الى ان تبلغ حد العشق خصوصا اذا كان عشيره منذ صغره بل المالوف زهادة الاقرباء بعضهم فى بعض متى تعاشروا ،

---

(١) انظر تفسير سورة الفاتحة

فكيف نظن او نتوهم ان النبى الذى يقــول الله له : « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحيــاة الدنيــا » يخالف مالوف العادة ، ثم يخــالف امر الله فى ذلك ؟ أم كيف يخطر بالبــال أن من عصم الله قلبــه عن كل دنيئة يغلب عليه سلطان شهوة فى بنت عمته ، بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده ؟

« ان النبى لم يبال بإباء زينب ورغبتها عن زيد ، وقد كان لا يخفى عليه أن نفور قلب المراة من زوجها مما تسوء معه العشرة ، وتفسد به شؤون المعيشة ، فما كان له وهو سيد المصلحــين أن يرغم امراة على الاقتران برجــل ، وهى لا ترضاه مع ما فى ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين ، لولا ان النبى يجد من نفســه ان هذا القران مقدمة لتقرير شرع وتنفيذ حكم الهى ، ذلك ان التصاق الأدعياء بالبيوت ، واتصالهم بانسابها كان أمرا تدين به العرب ، فكانوا يعطون الدعى جميع حقوق الابن ويجرون عليه وله جميع الأحكام التى يعتبرونهــا للابن حتى من الميراث وحرمة النسب ، فأراد الله محو ذلك بالاسلام ، حتى لا يعرف من النسب الا الصريح « وما جعل أدعياءكم أبناءكم » ثم قال : « ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم » فبين الله ان ليس للمتبنى الا حق المولى والأخ فى الدين

« وكان من عادة المصطفى أن يبادر فى كثير من شرائعه الى اقامتها بنفسه ، ليكون قدوة حسنة ، ومثلا صالحا تحاكيه النفوس ، وتحتــذيه الهمم ، وحتى يخف وزر العــادة ،

وتخلص العقول من ريب الشبهة . وعلى هذه السنة جاء تزوجه بزينب ، اذ الهمه الله تعالى ان يتولى الأمر بنفسه فى أحد عتقائه ، لتسقط العادة بالفعل ، كما الغى حكمها بالقول الفصل . فبعد ان صارت زينب الى زيد لم يلن اباؤها الاول ، ولم يسلس قيادها ، بل شمخت بأنفها ، وذهبت تؤذى زوجها ، وتفخر عليه بنسبها ، وبانها اكرم منه عرقا ، واصرح منه حرية ، لأنه لم يجر عليها رق ، كما جرى عليه . فشكا ذلك الى النبى غير مرة وهو يقول له : « امسك عليك زوجك واتق الله » الا انه لم يستطع الصبر على معاشرتها فطلقها ، ثم تزوجها النبى ليمزق من حجاب تلك العادة ، كما قال تعالى : « لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى ازواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطرا وكان امر الله مفعولا » واكد ذلك بالتصريح فى نفى الشبهة بقوله : « ما كان محمد ابا أحد من رجالكم » وقد قال العرب اذ ذاك تزوج محمد حليلة ابنه

« قال أبو بكر بن العربى : فأما قولهم أن النبى صلى الله عليه وسلم رآها فوقعت فى قلبه فباطل ، فانه كان معها فى كل وقت وموضع ، ولم يكن ثمة حجاب ، فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها فى كل ساعة ولا تقع فى قلبه الا اذا كان لها زوج وقد وهبته نفسها وكرهت غيره فلم يخطر ذلك بباله ، فكيف يتجدد هوى لم يكن .. » اه ملخصا

▭

وهكذا كانت سنة النبى صلى الله عليه وسلم فى جميع

زيجاته فلم يكن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه السنوات التى اكثر فيها من الزوجات اخضع لشهوته منه وقد كان فتيا لم يكلف بشيء من اعباء الرسالة ، ولم ينزل به من اذى قريش وعدائهم ما كان يضعف عن احتماله ، لولا ان جعله الله من الصابرين ، هذا كله على فرض ان انكحة النبى صلى الله عليه وسلم كانت كلها او بعضها بعد نزول آية : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » اما اذا كانت قبل ذلك كما حققه الأمير على فى كتابه « سر الاسلام » فلا حاجة الى التماس شيء من تلك الأسباب .
قال الامير على : ان ميمونة بنت الحارث كانت آخر من تزوج النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك فى السنة السابعة للهجرة ولم تكن الآية نزلت بعد ، ثم أن الله تعالى بعد ذلك لم يبح للنبى ان يتزوج على من عنده ، كما فرض عليه الا يتبدل بهن ازواجا اخريات فقال : « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو اعجبك حسنهن الا ما ملكت يمينك » اى الا من سبق لك التزوج بهن

وهنا مسالة أولع بايرادها كثير من احداث هذا الزمان ، قالوا : لم جازتعدد الزوجات على شرط دون تعدد الأزواج ؟

فاعلم أن ذلك يفضى بداهة الى اختلاط الأنساب ، فيقع اللبس فى نسبة النسل ، ولا يخفى ان ذلك يفضى الى تعطيل كثير من الأحكام الدنيوية ، كالنفقة والارث وغيرهما

وهنا مسالة أخرى وهى انه لم جاز للمسلم ان يتزوج كتابية بخلاف العكس ؟ وجوابها ان الاسلام جعل لكل كتابى ان يبقى على دينه ، فالكتابية فى يد المسلم آمنة على دينها

بخلاف العكس ، فان المسلمة فى يد الكتابى لا تأمن أن تفتتن فى دينها ، فانه لا وازع له من دينه يحول بينه وبين فتنة غيره ، ولا سيما من له عليه سلطان كزوجته ، والناظر لما يفعل دعاة النصرانية فى العصر الحاضر يرى جليا وجه ما قلناه ، ومن هنا يعلم أن المراة لم تبخس شيئا مما منحه الرجل

الطلاق

مما عد وصمة فى الاسلام اباحة الطلاق ، ولذا ينبغى لنا ان نأتى ببيان ما سيكشف لك ان شاء الله وجه الصواب فيه ، فنقول :

اعلم أن الطلاق اباحه الله للمسلمين لانه قد تدعو اليه الضرورة ، أما حيث لا ضرورة فسماه النبى صلى الله عليه وسلم أبغض الحلال الى الله ، كما ان المسلمين اتفقوا على النهى عنه عند استقامة الزوجين ، فمنهم من قال انه نهى كراهة ، ومنهم من قال نهى تحريم وقد رات الحنفية تحريم الطلاق بلا سبب ، ويؤيد ذلك انه اضرار ، وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عنه فى قوله : « لا ضرر ولا ضرار » ولقد كره النبى صلى الله عليه وسلم أن يطلق زيد زوجته زينب ، مع أنها كانت تكثر من ايذائه والاستخفاف به حسبما تقدم لنا آنفا ، أما الطلاق بسبب فلم يرفضه أحد ، ولكن اختلفوا فى بيان الاسباب ، قال ابن عابدين : واما الطلاق فالاصل فيه الحظر اى الحرمة ، والاباحة للحاجة الى الخلاص ، فاذا كان بلا سبب اصلا لم يكن فيه حاجة الى الخلاص ، بل يكون حمقا وسفاهة رأى ومجرد كفران للنعمة

وايقاع الايذاء بها وباهلها واولادها ، ولذا قالوا ان سببه الحاجة الى الخلاص عند تباين الاخلاق وعروض البغضاء الموجبة عدم اقامة حدود الله تعالى ، فحيث تجرد عن الحاجة المبيحة له شرعا يبقى على اصله من الحظر ، ولذا قال تعالى: «فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا» اى لاتطلبوا الفراق اهـ

اما غير المسلمين ، فمنهم من لم يجوز الطلاق اصلا الا للزنا ، كالأمة الانكليزية ، فايهما اقترفه كان للآخر ان يرفع الأمر الى المحكمة ليفصل القاضى بينهما . اما اهل الولايات المتحدة بأمريكا فكانوا على هذه السنة ، ثم وجدوا ان هناك أسبابا أخرى يتحتم معها الطلاق ، ولكن لا فرقة عندهم الا بقضاء قاض ، ولابد لجميعهم ان يرجعوا الى ما قرره الاسلام من الأسباب

نعم ان الشريعة الاسلامية لم تقف تنفيذ الطلاق على حكم الحاكم ، وقصار النظر من الناس يرون ان الأول اعدل ، لان فيه محاسبة الرجل والمراة على ما يعملان ، فلم يخل السبيل للرجل يفعل ما يريد . ولكن دين الاسلام اقوى ركنا واحكم وضعا وابعد مرمى ، فلم يفعل ذلك الا لحكمة صالحة ، ذلك ان فى تطبيق الطلاق على حكم القاضى بثبوت الزنا اقبح تشهير للمقترف واشنع سبة تنفر عن مرتكبه القلوب ، وتشوه سمعته فى العالم ، ولاسيما فى مثل هذا العصر الذى تطوف جرائده فى الشوارع والأزقة والدكاكين والبيوت والمصانع ، وتنتقل من ارض الى أخرى ومن يد الى غيرها ، مشحونة بتفاصيل ما يعرض فى المحاكم من هذه القضايا ، آتية على ما قل منها وما جل .

فمن ذا الذى يقبل على تزوج رجل او امراة قطعت سمعتها الشنعاء المشارق والمغارب ؟ يقضى ذلك الرجل وتلك المراة ما بقى من العصر مرذولين مجفوين ولو استقاما بعد ذلك واصلحا ، اما الاسلام فانه جعل للقاضى فسخ الانكحة فى امور لا باس فى اعلانها ، بل ان اعلانها هو المصلحة الكبرى ، من ذلك : العنة والجنون والبرص والجذام والاعسار بالنفقة والكسوة والمسكن ، مما تراه مبسوطا فى كتب الفقه متى رجعت اليها . اما غير هذه الاسباب مما قد يزول او لا كبير خطر فى بقائه ، فللرجل ان يطلق من غير ان يكلف بيانا فيه . فما اجمل ستار الشرع الذى يخفى كثيرا من النقائص ، رجاء ان تزول من قبل ان يظهر عليها احد ، وما ارافه بالانسان الذى قد يهفو ثم يبدو له فينيب

هذا . واعلم أن الديانة المسيحية لم تمنع الطلاق اصلا ، وغاية ما ورد فى الانجيل ان من طلق امراته وتزوج اخرى فهو زان ، وهذا لا تعرض فيه لحكم الطلاق اصلا

واعلم أن الطلاق فى الاسلام ، كما هو معلوم ، حق من حقوق الزوج « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم » ولكن الاسلام مع ذلك قد جعل للمراة ، كما تقدم ، أن تشترط فى العقد ان تملك ذلك كما عليه الحنفية ، فاذا لم تشترط ذلك هى او وليها فقد أقرت الرجل على الحق الذى خوله له الشرع ، ولكن مع ذلك لا يجوز له ان يوقعه الا حيث يراه الشرع حسنا صالحا

هذا ولم يعتبر الاسلام زنا الرجل من الاسباب التى

تطلب بها المراة فسخ الزواج ، ولا العكس ، الا ممن قذف امراته او رماها بالزنا او نفى حملها ، ولا بينة له ، فان له ان يلاعن زوجته وتلاعنه ، ثم يفرق القاضى بينهما ، والسبب فى ان هذه التفرقة لم تبن على مجرد الزنا من حيث هو زنا بل من حيث ما يستتبعه من الأحكام الدنيوية المتعلقة بما عسى ان يكون من الأولاد ، ولذا كان رمى المراة الرجل بالزنا لا يصلح علة للفرقة بل ان لهذا حكما آخر ليس هذا موضوع الكلام فيه

▭

فمما تقدم لنا هنا نرى ان الاسلام لم يجر فى جميع ما سردناه عليك هنا الا على مقتضى أصل الفطرة . فرفع شأن النساء حتى ساوين الرجال فيما يمكن من المزايا والحقوق ، ثم لم يبخسهن شيئا ، كما اباح للرجال ما اباح من تعدد الزوجات والطلاق مقرونا بما وضعه وقرره من الشروط ـ ولكن لو أنصف الناس لاستراح القاضى ـ حارب المسلمون دينهم وما شرط لهم ، فكان أكثرهم اباحيين لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون

كان الطلاق قبل الاسلام منتشرا فى جميع أمم العرب يهوديها ومسيحيها ووثنيها ، وكذا بين الرومانيين ، فلقد اعتبر قانون « الموائد الاثنتى عشرة » الطلاق جائزا . أما ما تشدق به بعض المتشيعين لهم من أنهم لم يعملوا بهذا القانون الا بعد خمسة قرون مضت من عهد تأسيس مدينتهم « رومة » فلم يكن سببه ما يدعون من بغضهم

للطلاق ، ولكن لأن الرجل فى تلك القرون كان له ان يقتل امراته عقابا لها على بعض الجرائم كالسكر ، فكانت عند الرجل كالرقيق ، كما أنها اذا طلبت من زوجها الطلاق اعتبر ذلك منها قحة ونشوزا يخول له عقوبتها . نعم ان الرومانيين فى اخريات امرهم أصلحوا كثيرا من شان المراة وانصفوها ، اذ ساووا بينها وبين الرجال فى كثير من الأشياء

يقول الأمير على : ان المعتزلة لا يجوزون وقوع الطلاق الا بحكم القاضى الشرعى العادل ، فلا بد أن يمتحن الأسباب بلا تحيز ، فيوقع الطلاق او يرفضه حسبما يراه صالحا . ومن هنا يظهر أن من طوائف الاسلام من يعلقون وقوع الطلاق بحكم القاضى ، فلا يصح عندهم وقوع الطلاق من الزوج الا بعد محاسبته وامتحان أسباب ما يريده من الفرقة

تعدد الطلاق

واعلم ان من اكبر الدلائل على بغض الشرع للطلاق ان جعل للرجل أن يسترجع امراته فى الطلقة الاولى والثانية ، لأنه ربما كان التطليق لسورة غضب ثارت فلم يملك نفسه حتى يتروى ويتدبر ، فرجا الشرع أن يرجع اليه رشده فيتدارك ما فرط منه حتى اذا طلق الثالثة وجبت عقوبته بعدم جواز الرجعة حتى تتزوج غيره لما تبين من انه سفيه الراى ضعيف العزم ، ولا يخفى ما فى هذا الشرط من السر الحكيم ، واذا اردت زيادة بيان فتدبر قوله تعالى : « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما » أيقول الله ان يريدا طلاقا يفرق الله بينهما أم ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ؟

وتفهم قوله تعالى : « خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » فقال لتسكنوا اليها ولم يقل لتطلقوها ، وقال وجعل بينكم مودة ورحمة ، ولم يقل بغضا وقسوة ، وقوله تعالى : « امسك عليك زوجك » أمر النبى عليه السلام زيدا بأن يمسك زوجته فلا يطلقها ، مع انها كما تقدم كانت تكثر من مضارته واساءته ، وقال تعالى : « فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » اى فلا تطلقوهن ، ومن هنا استنتج ان الأصل فى الطلاق التحريم ، الا لسبب كما تقدم لنا

خاتمة

ونريد أن نأتيك هنا بملخص ما كتبه الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، مما يناسب هذا المقام ليكون له احسن ختام :

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه ، وقرران لكل نفس ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » « وان ليس للانسان الا ما سعى » وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء اكلا وشربا ولباسا وزينة ، ولم يحظر عليه الا ما كان ضارا لنفسه أو لمن يدخل فى ولايته ، او ما تعدى ضرره الى غيره ، وحدد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة ، فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها ، اللهم الا حقا محترما تصطدم به . انحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر ، فبددت فيالقه

المتغلبة على النفوس ، واقتلعت اصوله الراسخة فى المدارك ، ونسفت ما كان له من دعائم واركان فى عقائد الأمم ، وصاح بالعقل صيحة ازعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هينمة من سدنة هياكل الوهم « نم فان الليـل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والأزواد قليلة »

علا صوت الاسلام على وساوس الطغـام ، وجهر بان الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولـكنه فطـر على ان يهتدى بالعلم والأعلام ، اعلام الكون ودلائل الحوادث ، وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طرق البحث هادون

صرح فى وصف اهل الحق بانهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا مما علموا أحسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ، ومال على الرؤسـاء فانزلهـم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ، ووضعهم تحت أنظار مرؤوسيهم يخبرونهم كما يشاءون ويمتحنون مزاعمهـم حسبما يحكمون ، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنـون لا بما يظنون ويتوهمون

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء ، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين باقوال السابقين ، ونبه على ان السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسميا لعقول على عقول ولا لأذهان على اذهان، وانما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان ، بل للاحق

من علم الاحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدمه من اسلافه وآبائه ، وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها اهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لاعمال من سبقهم ، وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما اقترفه سلفهم « قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » وأن ابواب فضل الله لم تغلق دون طالب ، ورحمته التى وسعت كل شىء لن تضيق عن دائب

عاب ارباب الأديان فى اقتفائهم اثر آبائهم ووقوفهم عندما اختطته لهم سير اسلافهم وقولهم « بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون »



أثر القرآن
في تحرير الفكر البشري

حرية الفكر قبل الاسلام

لعل من المستحسن ـ قبل أن أتكلم فى أثر القرآن الكريم فى حركة الفكر البشرى وتحريره ـ أن ألم بنبذة تاريخيـة فيما كانت عليه الأمم الكبرى فى طائفة من القرون التى سبقت ظهور الاسلام من التطورات ، وما تعاقب على العقول فيها من المد والجزر ، والتحرير والاستعباد ، فان فى ذلك ما يعيننا على ادراك مدى ما فعل القرآن فى انصاف العقل الانسانى واحلاله المقام الذى خوله خالقه منذ فطره واوجده

كان أساس القانون العام السياسى فى الأمبراطورية الرومانية اباحة علنيـة الأديان وجميع العقائد والأفكار وما زال الأمر هنالك كذلك حتى دخلت باوربة الديانة المسيحية التى ابتدأ بها عهد الحجر والحظر على ما سيأتى تفصيله

لقد كان من أهم الدعاة الى تحرير الأفكار من قيود الخرافات والتقاليد ، والقصص المزعجة التى كان يستعملها بعض شعراء اليونان ، ورجال الأديان فيهم : «هرقليتوس» و « ديمقراط » ، ولقد تناول هذان بالبحث ـ بعد المادة الطبيعية ـ احوال النفس البشرية والشئون السياسية ، وكان هدفهما ورائدهما فى جهودهما العنيفة امتحان كل شىء بالعقل والفكر . وكذلك ظهر « انكساجوراس » فجعل

يعلم الناس أن الشمس التى يصلون لها صباح مساء انما هى كتلة من النار ملتهبة لا اله يعبد

ومعلوم أن حركة هؤلاء الفلاسفة فى سبيل تحرير العقل مهدت الطريق لعلماء التربية المعروفين بالصوفية او السفسطائية ، الذين اخذوا يظهرون فى القرن الخامس للميلاد ، والذين وضعوا فى النصف الثانى من هذا القرن قواعد واصولا للحياة الاجتماعية من ناحيتى « الاخلاق والسياسة » وبحثوا فى الخطأ والصواب والعقل وقانون التفكير والخطابة وهلم جرا ، ولكن جميع ذلك كان لا يتجاوز الأقلية المطلقة التى هى طبقة المفكرين والعلماء ، اما الدهماء والعامة فكانوا فى كل مكان أسارى الخرافات والعقائد الضالة ، على انه لا ينبغى ان نغفل ما كان لاثينا فى ذلك العصر من التمتع بحرية الفكر والمناقشة فى الشئون السياسية وبخاصة لعهد زعيم نهضتها الحرة « بريكل » الذى كان يحمى ارباب التفكير الحر ، حتى لقد كان حصنا للفيلسوف الجاحد لآلهة اثينا ، « انكساجوراس » من المحاكمة

ومن وقائع ذلك الزمن وأحداثه ما يدلنا على ان النزوع الى الخروج على الأديان كان آونة لا ينجو من العقوبة ، وان ما كان ينشر من الكتب فى ذلك كان يجمع ويحرق او يحرم بيعه علنا ، ولكن الاضطهادات والتنكيلات المنظمة التى كانت تقام فى أوجه المنطقيين « Rationalists » اللادينيين كادت فى أواخر ذلك القرن تختفى ، وذلك لوفرة عدد هؤلاء واطراد نموهم وتكاثرهم ، ولقد كان من القضايا المسلمة لدى الاغريق ، ثم الرومان حتى فى ارقى عصورهم علما ومدنية

ومادية أن الدين نافع وضروري لعامة الشعوب مطلقــا ، ولذلك كان يقول بفائدتها ، كركن للسياسة العامة ، حتى من لا يدينون بها ، كما ان فلاسفتهم ما كانوا يقدمون على نشر اية عقيدة او نظرية ، من شانها احداث اضطراب ما فى الحياة الاجتماعية . ومن الأفراد البارزين فى هذا الميدان من الاغريق سقراط ، الذى يعتبر بحق اجل اولئك المربين ، فكان مما امتاز به وتفرد شديد تعلقه بطريق المناقشــة والنقد ، واجتذاب كل من يحادثونه ومن يستمعون اليه ، الى طريق استعراض العقائد المعروفة المألوفة ، وامتحانها بمحك الفكر ، مع افساح صدر العقل لكل بحث واحتمال ، دون تقيد بشىء من التقاليد ، ولا وقوف عند رغبـات الجماهير ، وانما سلك سقراط هذا الطريق فى نشره للعلم ، واقتياده شباب زمانه الى وجوه الحقيقة ، ومناهج التفكير الصحيح ، لأن بلاد اليونان منــذ حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد العيسوى ، كانت ميدان حركة فكرية ، ابتدعها افراد من اليونان ، كانوا فى اول هذه الحركة ، اما مسترزقين او طلاب شهرة وسمعة ، ثم اخذوا يسرفون فى اساليبهم الجدليــة وطرائقهم التشكيكية ، غير مبالين مايصيب العقول من التضليل ، ولا حاسبين حسابا لوخيم عواقبها ومنكر نتائجها

ولقد اكثر هؤلاء من الخلط والتخبط وتجاوز ما بين الحق والباطل وما بين الفضيلة والرذيلة من الحدود ، حتى التبس الأمر على العقول وخفيت عن بصائرها معالم العلم الصحيح وحدوده . ولم يتركوا شعبة من شعب التفكير ولا ميدانا من

ميادين المعرفة حتى اعملوا فى اساسها واركانها معاول التشكيك لا لعلم يبلغونه ولا لصواب ينشدونه ولكن ضلالا وتضليلا ، وجهلا وتجهيلا ، فلما جاء سقراط ، بما اوتى من العقل الراجح والراى السديد والعلم الصحيح ، لم يجد بدا ان يخاطب الناس على قدر عقولهم ، ويسلك فى هدايتهم تلك السبل التى سلكها اولئك فى تشكيكهم وتضليلهم ، ولو انه انتهج فى تعليمهم وارشادهم غير هذه المناهج التى فتنوا واغرموا بها لما استطاع ان يجتذبهم الى طريقه ، او يبلغ بهم شيئا من مقاصده ، والى عهد سقراط لم تكن التربية العالية من اغراض السياسيين والمفكرين من اليونان

ومع كون اثينا فى ذلك العصر كانت اشهر البلاد فى الديمقراطية واكثرها تسامحا وحرية ، نجد التاريخ يسجل لنا ما لا يكاد يصدقه الوهم من الاضطهادات التى كانت تنال المتصدين للدعوة الى حرية الفكر والاحتكام الى العقل

اشتهر سقراط بطريقته التحاورية ، وبالجدل والتشكيك ، والنقد وعدم التقيد بما عليه الناس اذ ذاك من التقاليد والأفكار ، ولكن كان لدى اليونانيين من الروح المعادى لتلك الحياة العقلية الجديدة ما أفضى الى محاربة الفلاسفة (وفى مقدمتهم سقراط) بسائر الوسائل ، ولا سيما الروايات التى وضعوها للسخرية منهم والاستهزاء بهم ، وتصوير مثل سقراط زنديقا غير تقي وداعيا مضرا ، حتى لقد ثارت عليه الأمة اليونانية آخر الأمر ، فاعتبرته ملحدا ومفسدا لعقائد الشباب وقتلوه سنة ٢٩٩ قبل الميلاد ، لهذه الأسباب ، كما يدل عليه محاكمته ، وما قدمه فى الدفاع عن نفسه ،

وقد علمنا من التاريخ انه قدم لدرء ما اتهم به من افساده لعقائد الشباب هذين الدفعين :

(١) يجب على كل فرد مهما تكن النتيجة ان يقاوم كل ما يراد عليه مما يراه ظلما ، سواء أصدر عن شخص صاحب نفوذ أم عن محكمة

(٢) ان لا ينزل مطلقا عن القول بأن فى المناقشة الحرة مصلحة للفائدة العامة ، وضمانا للعلم الصحيح

بعد ذلك بسبعين عاما ، اضطر ارسطو ان يفارق اثينا ايضا ، حذر ان يساق الى ذلك المصير ، لاعتباره فيها ملحدا ايضا

ولقد جاءنا افلاطون ، انجب تلاميذ سقراط ، فى آخر ايامه بصدمة تراجعت بها الحركة التقدمية لحرية الفكر والمناقشة بعض الشيء ، فانه يرينا فى (المدينة المثالية) انه لا بد لأهل المدينة من قبول الدين الذى رسمه هو وصوره ، وان من لا يؤمن به يعاقب بالقتل والسجن ، وان حرية الجدل والحوار معاقب عليها على النحو الذى وضعه . الخ . على ان تعاليم سقراط فى محادثاته ظلت ينبوعا غزير المادة ، ترعرعت به عدة مذاهب فى الفلسفة ، وصدر عن مرتواه جملة من الفلاسفة المعدودين ، كأفلاطون وارسطو واستويقس وامثالهم ، ممن انبثت مذاهبهم فى أطراف بلاد الاغريق منذ ابتداء القرن الثالث قبل الميلاد ، وفتحوا لهذه البلاد مصاريع ابواب الحياة العقلية ، وانعشوا فى اهليها حركة التفكير والتدبر

ولقد سبقت لنا المامة بما ترك افلاطون وارسطو من الأثر فى تحرير عقول الاثينيين ، ولكن من المفيد ايضا ان نورد هذا ان ابيقور ـ على رغم جحوده قيام السلطان الالهى فى هذا الوجود للتدبير والتعريف ونبو بصره عن كل موجود سوى المادة والماديات ـ قد تخطى بالعقول الخاملة فى اقدامه المدهش السريع عقبات استعصى تخطيها على الأجيال والقرون . ولقد وجد أحد الشعراء من الرومانيين فى فلسفته وحيا والهاما مستطابا اودعه قصيدته المسماة (فى طبيعة الدنيا)

ولم تكن فلسفة استويقس فى تحرير العقل الانسانى باقل حظا من المذاهب المذكورة آنفا ، بل الحقيقة أنها جاءت منظمة ومفصلة لجملة من القوانين الاجتماعية التى لم يات سقراط على بيان شىء منها ايام كان يقرر أن القوانين قد تكون غير عدل وان الناس يجرمون . ولقد كان لفلسفة استويقس اثرها فى الشرائع الرومانية ، فان أساس القانون المدنى فى الامبراطورية الرومانية ، كان ، كما قدمنا سابقا ، اباحة علنية جميع الأديان والجهر بسائر الأفكار

قدمنا ان حرية الدين ، وحرية الجهر بالفكر ، لازمتا الشرائع الرومانية حتى دخلت الديانة المسيحية فى اوربا ، فضربت هنالك حولها نطاق الحجر والحظر ، لما كانت عليه من التقاليد الوثنية

ابتدا بها الحجر لأن الرومانيين كانوا يعتبرونها شعبة من اليهودية التى تنافر بطبيعتها التقاليد الوثنية الرومانية ، والتى ما كانت تتمثل لأبصارهم سهلة سمحة

ولشدة نفور الرومانيين منها ، وبغضهم لها ، واعتقادهم

ابتعادها عن روح التسامح ، اصدر تراجان قانون حكم القتل على من يدين بالنصرانية ، وقد احاطه بقيود لم تيسر السبيل الى الاسراف فى القتل ، ولكن الامبراطور بيوكلتيان أراد تأييد دين الحكومة ، وتثبيت قدم الحرية التى الفوها قديما ، فكان ما قرره من تنظيم المذابح فى المسيحيين بكل فظاعة وقسوة . وفى الحق أن الذى دفع ذلك الامبراطور الى هذه الجرائم ، ان المسيحية كانت تقبح ما اعتيد من عبادة الرومانيين اباطرتهم ، على حين ان ملوك الرومان كانوا يرون ضرورة أن تخصهم الشعوب بالعبادة ، توحيدا لكلمتهم ، وتعلقا خالصا بعروشهم التى تمثل الامبراطورية جميعها . ولكن بدخول قسطنطين الكبير فى النصرانية دارت الدائرة على العقل ، فكان أول عهده بالاعتقال والاسترقاق. وبعد أن كان رجال المسيحية فى القرنين اللذين سبقا ذلك ينادون بأن التسامح الدينى واجب ، وان العقائد ليست مما يلزم به الانسان جبرا ، فتنوا بدخول قسطنطين فى النصرانية ، وانقلب الأمر رأسا على عقب ، فكان الحكام والملوك ، لأسباب سياسية غالبا ، كما كانت الطوائف المختلفة لما بينها من الاختلافات المذهبية ، يوقدون نيران الفتن ، ويقيمون المذابح المروعة هنا وهناك ، حتى سلب من الدنيا الأمن والسلام ، وفقدت الأنفس الراحة والطمانينة . ولقد كان من تعاليمهم أن النجاة لا تكون الا بقبول المسيحية ، وأن من لا يقبلها لا ينجيه فداء من عذاب الدنيا ، ولا عذاب الآخرة ، مهما بلغت من الفضائل ، ومهما يقدم من الخيرات والحسنات ، وانه اذا مات الطفل قبل التعميد فانه

فى الآخرة يمشى على بطنه فى ارض جهنم ابد الآباد

ومن اقدس رجالهم (سانت أوغسطين) الذى مات سنة ٤٣٠ ميلادية ، فانه وضع نظام اضطهاد من لا يقبل النصرانية ، واستمر ذلك من بعده متبعا الى القرن الثانى عشر ، وكلما حدثت بين النصارى بدعة او عقيدة تقلل من دخل الكنيسة ، اشتد القسوس على أصحابها وغلوا فى ايذائهم والتنكيل بهم

ولقد امر البابا انوسنت الثالث « كونت تولوز » ، أن يستأصل طائفة من رعاياه ذات بدعة مذهبية ، فلما لم يطع امره اقام عليه حربا صليبية كادت تفنى قومه ، وفيها صودرت أملاك ذلك الكونت ، وكسرت شوكته ، ولم يصالحه البابا الا على شرط استئصال آثار ذلك المذهب من ملكه

كذلك أقيم نظام التفتيش فى المنازل وغيرها للبحث عن الملحدين سنة ١٢٣٣ ميلادية ، وتم تنظيمه لعهد أنوسنت الرابع سنة ١٢٥٢ وادخل فى سائر المدن والممالك النصرانية ، وعين لذلك المفتشون من القساوسة ، ومنحوا من قبل البابوات السيطرة المطلقة غير مسئولين عن شىء يفعلونه ، وساعدهم على ذلك ما وضعه الأباطرة لعقاب الملحدين من القوانين القاسية الجائرة

ومع كون فريدريك الثانى الكبير كان حر الفكر ، أصدر امرا يقضى بأن كل من ينكر او يبتدع شيئا فى النصرانية يعتبر خارجا ، ويحرق منهم من لم يتب ، ويحبس من تاب ، ومن ارتد قتل ، وتصادر أملاك الجميع وتدمر

بيوتهم ، وكذلك اطفالهم لا يستحقون الرحمة ، لا هم ولا انسالهم ، الا اذا اخبروا عن ملحدين أو مبتدعين ولو كانوا آباءهم . وقد جعل فريدريك (الخازوق) عقوبة الالحاد والابتداع ، وطبق ذلك الأمر فى ايطاليا والمانيا خلال ١٥ عاما (١٢٢٠ ــ ١٢٣٥ م) ثم عمم نظام التفتيش فى غرب اوربا . ولعهد هنرى الرابع والخامس عوقب الالحاد بالخازوق فى انكلترا بقانون أصدر سنة ١٤٠٠ ونسخ سنة ١٥٣٣ ، ثم اعيد لعهد الملكة مارى ، ونسخ نهائيا عام ١٦٧٦ م

واستمر تطبيق هذه القوانين على المسلمين واليهود ، بأفظع الطرق الوحشية ، ولم تنسخ الا فى القرن التاسع عشر ، وكانت خلال ذلك تطبق بوحشية على من حملتهم على الردة من البيوتات الاسلامية واليهودية . وبالجملة فقد كانت القاعدة التى بنى عليها نظام التفتيش « خير ان يقتل مائة ابرياء من ان يلحد فرد واحد » وبهذه القاعدة صاروا يقتلون ويحرقون لاقل شبهة ، ولم يكن لأحد حق الدفاع عن نفسه ، ولا كان لمحكمة ان تقبل فى حال ما شاهد نفى

وكما فعل بمخالفى العقيدة النصرانية ، كذلك فعل بطوائف السحرة ، فمن ذلك ان البابا « انوسنت الثامن » نشر فى سنة ١٨٨٤ بلاغا يؤكد فيه أن الطاعون والعواصف من عمل السحرة ، فتتبعوهم فى كل مكان فاتكين بهم الفتك الذريع ، وبخاصة فى انجلترة واسكوتلاندة

▭

وفى أواخر القرن الثانى عشر جاء للعقول قبس من دنيا

اخرى ليفك عنها اغلالها وسلاسلها ، اذ اخذت فلسفة ارسطو بواسطة العرب تبسط نفوذها فى غرب اوربا . ولقد كان لابن رشد وامثاله حظ كبير فى تحرير عقول اهل اوربا ، كمانالهم كثيرمن مناهضة البابوات لتعاليمهم ، فاننا نجد البابا يوحنا الحادى عشر ، يقبح تعاليم ابن رشد ، ويحكم بضرر وجودها ونشرها ، كما ان القس توماس قسيس اكوينو بجنوب ايطاليا سنة ١٢٧٤ ، قام فاسس للكنيسة فلسفة ازاء فلسفة ارسطو والعرب ، وهذه لا تزال تتمسك بها الكنيسة الرومانية . والحقيقة ان فلسفته ما كان من شأنها تثبيت العقول البشرية على قرار ، بل انها فى اغلب المواطن كانت تتركها كريشة فى مهب الرياح ساقطة لا تستقر على حال من القلق

وقد اجمع المؤرخون على ان الحركة الفكرية ، والنهضة العلمية ، دخلتا أوربا فيما حول القرن الثانى عشر الميلادى من طريقين : احدهما الاحتكاك الذى ظل نحو قرنين مستمرا بين امم اوربا والشرق الاسلامى خلال الحروب الصليبية ، والآخر طريق المعاهد العلمية التى اقامها العرب فى الاندلس ونابولى وجزيرة صقلية . والمحققون من المؤرخين يقررون ان من بدىء بهم تاريخ النهضة العلمية فى أوربا ــ كروجر بيكون وامثاله ــ كانوا من الواقفين على اللغة العربية وعلى اللغة اللاتينية التى كانت تنقل اليها علوم العرب ومباحثهم فى كل فن . واذا انتحل هؤلاء أو عزى اليهم بعض الابتكارات ، فانما سبب ذلك ما تعمدوه غالبا من اغفال المصادر التى اخذوا عنها ، حتى لقد رجع ائمة

التاريخ ان روجر بيكون الراهب الانجليزى الذى يعزو اليه الفرنجة ابتكار العدسات والنظارات ، انما اخذ هذا عن الحسن بن الهيثم ، صاحب المباحث العظيمة فى الطبيعيات ، ولا سيما الضوء والبصريات . فمجاورة اهل اوربا لأهل القرآن الذى حرر العقول ، واقام صروح العلوم ، وزين الدنيا بجميل الفنون ، هى التى فتقت بصائرهم ، وكشفت عن حديد ابصارهم اغشية الجهالة ، التى حجبتهم عن انوار الهداية ادهارا طويلة . ولو ان هؤلاء الغربيين وقفوا من العقل الانسانى موقف اهل القرآن من كل وجه، لما تأخرت نهضتهم الفكرية الصادقة عن ذلك الوقت الذى اتصلوا فيه بالمدنية العربية وحرية الفكر الاسلامية ، ولكن كان لسلطان رجال الدين فى تلك العصور ، واسترقاقهم لعقل الدنيا المسيحية خلالها ، ما قاوم تقدمهما واضعف تأثيرهما . فلقد وجهوا الفلسفة الواغلة فيهم الى المناحى الدينية ، وقصروها على المباحث الكنسية ، وبذلك صرفوها عن وجوهها الأصلية ، وقصدوا بها الى غير غاياتها الطبيعية

ومع ان المرسوم الذى اصدرته الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٥٢٩ م ، قاضيا بوجوب الانصراف عن جميع المجادلات ، والا تفسر التوراة والاناجيل الا بما تقرره الكنيسة ، قد اغضب كثيرا من الأمم النصرانية ، وبرغم ان هذا القرار فى الواقع كان من اهم اسباب ولادة المذهب البروتستنتى ، فان لوثر صاحب هذا المذهب لم يلبث ان قرر أن للحكومة حق اجبار الشعب على قبول ما راى انه العقيدة الصحيحة ، وأن لها استئصال الملحدين المنكرين لها

بذلك الكيد المبيد للعقل الانسانى والغدر الأثيم به ، لم تقر الحركة الفكرية على المضى فى سبيل حريتها ، والظهور على ما كان يبيت لها رجال الدين من الحروب الشعواء ، حتى كانت اواخر القرن السادس عشر ، حينما ظهر فرنسيز بيكون الفيلسوف الانجليزى بحملاته المنيفة ، على الفلسفة الدينية ، مصدعا بمعاوله صروحها الشامخة الرهيبة ، داعيا الناس الى تحرير العقول ، ومعالجة المسائل العلمية بأساليبه الجديدة التى وضعها ، واقتاد الباحثين اليها ، فبدأ بذلك عهد التجديد العلمى ، والتحرير العقلى ، الذى لا تزال المشارق والمغارب حتى اليوم تنعم بشهى ثماره الدانية القطوف

عهد التحرير العقلى

يبتدىء تاريخ العهد الجديد باوربا ، كما هو معلوم ، عام ١٥٤٣ م ، ذلك حينما نشر كتاب كوبر نيقوس الذى يثبت به دورة الارض حول الشمس ، ثم زاد غاليليو بواسطة تلسكوبه اثبات اقمار المريخ ، واثبات دورة الارض حول نفسها ، مستدلا على ذلك بالبقع المظلمة التى رآها فى جسم الشمس ، فبماذا قابلته الكنيسة ؟ لقد قرر المجمع المقدس فى فبراير سنة ١٦١٦ ان مذهب كوبرنيقوس سخيف ، وبمقارنته بما جاء فى الوصية (وصية المسيح) يعد هرطقة. ولقد حرمت رومة تعليم نظام المجموعة الشمسية الى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر . وقد اربك هذا التحريم دراسة العلوم الطبيعية فى ايطاليا . وكذلك اقام البابا الكسندر الرقابة على المطبعة سنة ١٥١٠ ، كيلا تنشر

ما لا ترضاه البابوية من الافكار الحرة ، ولو كانت حقائق علمية ثابتة . وفى فرنسا كان الملك هنرى الثانى يعاقب بالقتل كل من يطبع شيئا بدون ترخيص . والحقيقة ان الطبع لم يصر حرا فى اية قطعة من اوربة الا فى القرن التاسع عشر ، وهو العصر الذى ضعفت فيه سيطرة الكنيسة ، وقويت شوكة الملوك والأمراء المدنية ، وسادت النظم والقوانين الدستورية ، ولما تأسست الجمهورية الديمقراطية فى فرنسا (١٧٩٢ م) أعيد وايد القانون القاضى بعدم الاعتراف بالسلطة البابوية ، ولكن وجدت بجانب ذلك حركة شديدة ضد الكنائس ، اذ امرت حكومة باريس باغلاق سائر المعابد بلا تفرقة ولا استثناء ، مستعملة فى ذلك القوة القاهرة والصرامة الماضية ، ولكن حينما جاء روبسبير على راس الحكومة قرر ان يكون دين الحكومة عبادة العلى الكبير (ابريل سنة ١٧٩٥) ، وبعد قليل أحدث دين وضعى جديد ، يسمى دين الفطر ، وهو دين فلاسفة ذلك القرن ودين شعرائه ، مثل فولتير . وقواعده هى القول بالله ، وخلود النفس ، والأخوة الانسانية (الرحمة) والا تهاجم هذه الديانة غيرها من الأديان والمذاهب ، ويسمى هذا الدين الجديد دين محبة الله (Theophilanthropy) ولما كان عام ١٨٠١ جاء نابليون فقلب هذا الدين راسا لعقب ، واظهر البابوية ثانية فى الميدان ، ولم يكن يقصد من ذلك الا الانتفاع بالسلطة الروحانية ، والاستفادة منها فى حروبه المستقبلة ، وتوسيع امبراطوريته فى عالم الكثلكة

وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، زلزلت عقيدة

جماعات من المسيحيين ، لما كان يذاع اذ ذاك من ان فى التوراة والأناجيل من التضارب والتنافر ما لا تقوى العقول على قبوله . فتفشى بذلك انكار الوحى ، وسادت المناقشات العلمية هنا وهناك . وفى القرن التاسع عشر انتظمت الحملات على التقاليد القديمة ، فاجتثت كثيرا من أصولها ، وان يكن علماء تلك العصور اختلفوا فيما بينهم بعض الشيء ، فمنهم من انكرها بتاتا واعتبرها غير معقولة وسخيفة ، ومنهم من لم يصل الى هذا الحد الغشوم . فبسكال الفرنسى كان من المؤمنين بها ، وبيكون الانجليزى كان يعلن اللاهوتية وان يكن مضمرا الالحاد . وهناك ديكارت كان من ناحية اخرى يحاول ان يوفق بين العقل والكنيسة

ولقد نقتفى فى بعض الآونة اثر تغلب العقل على الكنيسة، فى معاملة السحرة ، فاننا بعد ان رايناكيف كان جيمس الاول، عملا بآية الانجيل « لا تبقوا على حياة السحرة » (Thou shalt not suffer them to live) ، يطارد هؤلاء بكل صرامة وغلظة ، نشهد فى أواخر احداث عام ١٧١٢ كيف اعتبر المحلفون الساحرة (جان ونهام) من اهالى هرتفورد شير مجرمة تستحق عقوبة القتل ، فرفض القاضى قولهم وبراها غير متأثر بتعاليم الكنيسة ، ولا متقيد بالتقاليد السائدة اذ ذاك

ولقد نسخ هذا القانون نسخا سنة ١٧٣٥ ، ولكن فى سنة ١٧٥٢ حكمت محاكم اسكوتلاندة باحراق امراة ساحرة

ومن المذاهب الجديرة بالذكر ، ما أحدثه فى هولندا

فيلسوف يهودى اسمه (سبينوزا) واعلنه الى الناس عندما حل عقال الفكر ، والقى حبله على غاربه . وعقيدته أن هناك الها ليس قائما بذاته ، وانه ليس للانسان ارادة حرة ، وان القول بالعلة الاولى او علة العلل خرافة ، وبعبارة اخرى كان يقول كما هو الظاهر بوحدة الموجود ، او وحدة الوجود ، ولا بد ان يلاحظ ان هذه الكلمة كانت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر رمزا الى صاحب الفكر الحر ، فكانت عبارة مقت وتكفير الا فيما ورد منها فى بعض الكتب الدقيقة ، ولكن الحقيقة أن الذين سموا اذ ذاك بذلك الاسم لم يكونوا الا الهيين ، بيد أنهم ينكرون الوحى فقط

ومن معاصريه (لوك) ومغزى كتابه الذى وضعه سنة ١٦٩٠ أن العلم جميعه ليس الا نتيجة التجارب ، وقد اخضع الاعتقاد فى جميع احواله للحكم العقلى ، وقرر رفض ما يخالف الحكم العقلى من الوحى ، لأن الوحى لا يعطى علما صحيحا كالذى يعطيه النظر العقلى ، وقد وضع كتابا فى موافقة النصرانية للعقل . ولقد حذا هذا الحذو معاصره « بايل » الذى وضع بعد نفيه من فرنسا الى هولندا كتابه « القاموس الفلسفى » (Phylosophical Dictionary) ومن كلامه ان فضيلة الاعتقاد تنحصر فى الايمان بقدرة الله وسلطانه وحده ، ويقول انه يستحيل أن يتصور الالهيون تطبيق صفات الأرثوذكس على الاله الذى ثبت بالعقل وجوده . ولما قبل فريق من الأرثوذكس تحكيم العقل ضلوا ، وسقط منهم كثير فى هاوية الالحاد . وقد تطابق

الالهيون و (سبينوزا) فى القول بان الكتب السماوية تفسر كغيرها من الكتب

ولقد ظلت افكار الالهيين خفية مكتومة الى سنة١٦٨٥م حين ابطلت قوانين المطبوعات ، فابتدات اذ ذاك تظهر بعض الظهور ، برغم ما كان امامها من العقبات الادارية الاخرى ، وهى :

(١) انه كان لرجال الدين حبس كل من يطعن فى المسيحية ، او يظهر آراء تخالف ما لديهم من تقاليدها ، او ياتى بالحاد ، او سب للمسيح

(٢) ترجمة القانون العام سنة ١٦٧٦ (ترجمة قاضى القضاة هيل فى قضية رجل يدعى تيلر) القاضية بأن اى عمل او قول او راى يخالف تعاليم الكنيسة ، يعتبر مخالفا للقانون العام ، اذ النصرانية ركن من اركان القانون العام الانجليزى

(٣) صدر قانون عام ١٦٩٨ يقضى بان كل نابت فى النصرانية لا يجوز له ان يعلن مخالفته لاصول الكنيسة وتعاليمها ، ومن يفعل ذلك يعاقب لاول مرة بالحرمان من الخدمة فى الوظائف العمومية ، وفى الثانية يحرم من الحقوق المدنية العامة مع حبسه ثلاث سنوات

ولقد تولى فولتير ، وروسو ، فى القرن السابع عشر قيادة حركة تحرير الفكر . وللأخير يعزى كتاب « اميل » الذى

احرق علنا فى باريس وصدر امر الحكومة بالقبض على مؤلفه فما وسعه غير صدر فردريك ملك بروسيا ، ولكن رجال الدين هناك ما زالوا يضيقون الارض عليه حتى اضطروه الى مفارقة بروسيا . ولقد كان لروسو اعظم تأثير فى الحياة الاجتماعية ، بعد الذى نشر من نظرياته الاشتراكية فى كتابه « العقد الاجتماعى » (Social contract) الذى احرق علنا فى جنيف

وفى سنة ١٧٧٠ فوجىء القراء الفرنسيون بالدهشة يوم ظهر كتاب البارون دى هولباخ « نظام الطبيعة » (System of nature) الذى انكر فيه وجود الله وخلود الروح ، وقد انتشرت فى القرن الثامن عشر حركة الالحاد وحرية الفكر رغم مطاردة زعماء هذه الحركة واضطهادهم . على ان ذلك استمر الى ما بعد هذا القرن ، فقد حوكم كارلايل سنة ١٨١٩ ، وسجن ثلاث سنوات عندما نشر كتابه (عصر العقل Age of Reason ثم قدمت امراته وبنته وكثير من بائعى الكتب للمحاكمة بسبب ذلك الكتاب

▭

وفى اواسط القرن الثامن عشر ، ابتدات حركة الحرية الفكرية ، بعد اذ كانت العقول هنالك مكبلة مغلولة ، وبعد ان راينا كيف نفى ابو فردريك ملك بروسيا الفيلسوف ولف ، لمجرد انه مدح ديانة كونفشيوس الصينية ، وما كان لاحد فى رأيه ان يمدح دينا غير النصرانية . وبعد ذلك جاء ابنه على اثره بالتسامح الذى جعل ارضه موئلا

ومعاذا لسائر المضطهدين والمطاردين من البلاد الاخرى .
ثم جاء شكسبير وغوتة بما قدما لعالم الادب ، فخطوا بالعالم في حرية الفكر خطواتهما الواسعة . وقد زلزل الثقلين (كانت الفيلسوف) اذ بين في كتابه (نقد العقل الصحيح Critic of pure reason) بطلان الاستدلال على وجود الله بهذه الكائنات ، وبطلان الأدلة التي اقيمت على خلود الروح ، وادعى ان لا مصدر للعلم سوى التجارب ، وان يكن في آخر الأمر وضع كتابا آخر روحه الهية ، وذلك حرصا منه على الاخلاق في الشعب التي هي ميزان الحياة الاجتماعية ، والتي لا سبيل الى اصلاحها وتقويمها فيما ارتأى سوى ان تصبغ بصبغة روحانية ، وتسند الى مصادر سماوية

مما تقدم يفهم ان العلوم العصرية في البلاد الغربية ترجع الى القرن السادس عشر ، الذي شهد ثبوت نظرية كوبرنيقوس ، وشهد القوة المركزية الجاذبة ، ونظام الدورة الدموية ، والقواعد الحديثة للكيمياء والطبيعة ، كما شهد معرفة كنه الكواكب والشهب وكيفية تولدها . ولكن هذه المكتشفات ظلت الى القرن التاسع عشر لا تفسر المسائل الكونية الغامضة ، التي وردت في كتب العهدين الا بدرجة محدودة ، بيد أنها مع ذلك قادت الافكار الى البحث في الروايات التاريخية ، التي جاءت بها ، كطوفان نوح وسفر التكوين . فلقد جاء لابلاس في أوائله كما قدمنا ، فقرر ان ابحاثه تفضي الى رفض نظرية وجود الخالق ، ثم تقدمت مباحث علم الجيولوجيا ، وجاءت بفروض ناطقة بما يناقض

فى الجملة سفر التكوين وقصة الطوفان

وفى عام ١٨٦٣ أوضح الاستاذ ليبل الفرنسى (Lyell) فى كتابه (قدم الانسان) ان الانسان سكن الارض قبل العصر الذى عينته التوراة بأزمان مترامية فى القدم ، ولكنه راى امكان الجمع بينهما باعتبار اليوم الذى جاء فى التوراة طويلا جدا ، لا كأيامنا المألوفة ، واعترض عليه بأن هذا لا يمكن تطبيقه على الايام التى خلق فيها الانسان ، فان التوراة تفيد انها كانت كأيامنا

وقد زعم الفلاسفة المحدثون ان علم الجيولوجيا زعزع اركان الاناجيل ، ولكنها تركت بابا للقول بوجود النوع البشرى « قبل التاريخ » وما زالوا على هذا المذهب حتى جاء علم الحيوان ، مبينا اصل الانسان ، فطبقوا على البشر قانون النشوء والارتقاء ، وسائر النواميس الطبيعية ، وكاد يعتبر هذا من الحقائق الثابتة منذ ظهر كتاب دارون اصل الاجناس (Origin of species) عام ١٨٩٥

وازدادت الثورة الفكرية ، وتأججت نيران الجدل عندما ظهر فى عام ١٨٧١ كتاب دارون منشأ الانسان (The Descent of man) بين الدينيين وغير الدينيين ، حتى لقد يؤثر عن غلادستون فى تلك الآونة قوله : « اذا قلنا بنظرية النشوء والارتقاء تكون وظيفة الاله باعتباره خالقا قد انتهت ، ولو سلم القول بعدم تغيير القوانين الكونية ، وانها قارة خالدة على حالة واحدة لأصبحت حكومة الرب فى العالم مما لا حاجة اليه » . واذا اردنا أن نعرف مركز العقل ، ومدى حرية الفكر فى البلاد الغربية ، غير

الاسلامية ، حتى فى أواسط القرن الأخير ، فحسبى ان اقتبس كيف صور المؤرخون بلاغا اذاعه أحد الكرادلة من الانجليز اذ يقولون :

« فى سنة ١٨٦٤ أدهش الكردينال مانتج الانجليزى عالم النصرانيــة ببلاغ يقول فيه : ان لـكل انسان ان يعتقــد ما يراه بنظره صحيحا ، وانه ليس للكنيسـة حق الاكراه على العقائد ، وان علم ما وراء الطبيعة يمكن بل يجب الا يتقيد بالوحى ، ولا برغائب الكنيسة ، وان للكاثوليكيين حق دعوة من يشاءون من مهاجرى الملل الاخرى ، وان لهــؤلاء ان يقيموا صلواتهم جهرة ، وانه يجب على البــابا ان يقيم فى سلام مع الرقى العلمى والحرية والمدنية »

فلننظر كيف اعتبر المؤرخون نشر ذلك البلاغ من الأحداث الكبرى التى أدهشت عالم النصرانية ، مع أنه عند التدبر لم يأت باكثر مما عرفه العالم الاسلامى ، والفه منذ اشرق نور القرآن على القلوب ، وتجلت تعاليمه الفطرية على العــالم الانسانى ، تفرض التفكير ، وتقبح التقليد ، وترفع الحجر عن العقول

مما اسلفنا نعلم ما كان بين الفكر البشرى ، وبين ملل الغرب ، من الجدل العنيف ، والصراع الدائم فى العصور العديدة ، حتى كاد ينتهى النصر فى العاقبة للعقل ، ويكتب الغلب لحرية الفكر

وانماقلنا (كاد) لأننا لا نزال نرى فى بعض ممالك أوربا ، وفى أمريكا الجديدة ، أقواما لا ينفكون ينصرون القــديم ، ويفضلون الجمود على ما كان عليــه الأولون ، ولو عارض

المشهودات العينية ، وناقض الحجج المنطقية . وهل نسى احد منا كيف عاملت فى العام الفارط احدى جامعات امريكا كبيرا من اساتذتها ، لترويجه مذهب دارون ، يوم قامت من حوله ضجة وعجة ، لم يخفت لها صوت ، حتى انتهت بفصله عن كرسيه فى تلك الجامعة

الحرية فى الشرق الاقصى

حسبنا تلك النبذة الموجزة لتصوير ما كان عليه العقل البشرى فى الغرب ، من الازمات التى احتمل ما لا يوصف من آلامها وشرورها ادهارا طوالا فى سبيل حريته واستقلاله . والآن الم المامة خفيفة بما كان عليه العقل فى الشرق الاقصى فى ذلك الوقت الذى انتعشت فيه الحركة الفكرية ببلاد الاغريق ، اى فيما حول القرن الخامس قبل الميلاد فاقول : بينما قام فى الشرق الادنى اكسينوفانيس فهاجم آلهة اليونان ممطرا اياها وابلا من التهكم والسخرية ، داعيا الناس الى ترك عبادتها والزراية بسخافاتها ، وبينما كان هيركليتوس وديموقريتوس يعالجان العقول البشرية لتحريرها من اسر التقليد الجاهلى ، واجتذابها الى حظيرة التفكير فى ملكوت السموات والارض ، نجد فى الطرف الآخر من الشرق مثل تلك الحركة العقلية والنفسية ، تنبه الهمم الخامدة وتقتاد الشعوب الضالة الجاهلة ، فى سبيل التفكير والبحث عما فيه صلاح حياتهم الاجتماعية : ففى الهند يظهر بوذا بتعاليمه ، وفى الصين يحارب كونفشيوس ما كان فى قومه وحكام عصره من التفاوت فى الطبقات ، والنزوع الى الفوضى السياسية والاجتماعية ، ويهذب ما كان يرى فى

امراء زمنه من القسوة والغلظة والجور واستعباد الناس

ومما يلاحظ هنا ان الشرقين ، وان اتحدا أو تقاربا فى زمن نهوضهما ذلك ، فقد تشابها فى كنه تلك النهضة وطبيعتها ، الا انها كانت فى الهند اشد عناية بتهذيب النفس ، وتطهيرها من أدران الاخلاق الفاسدة منها بغيرها من الشئون العامة المادية ، كما ان النهضة الكنفوشيوسية فى الصين كان هدفها وضع النظم وتقرير الدساتير لضبط الحياة السياسية والحياة الاجتماعية والمظاهر المادية

كما جاء رجال الدين فى الشرق الأدنى والبلاد الغربية بما بسطنا سالفا من البدع والمظالم والمغارم والطقوس العبادية ، والعقائد التى ارهقت العباد ، وازهقت الأرواح ، واستعادت استعباد العقول ، وجعلت القرون الوسطى شر القرون واشقاها ، كذلك فعل زملاؤهم فى الصين والهند وما حولهما مثل ما فعلوا ، فكان من حكمة العليم الحكيم ، ورحمة الرفيق الرحيم ، أن يشرق على عباده وخلائقه الحائرين فى ظلمات الضلالة ، الهائمين فى أودية الجهالة ، ليفك اغلال عقولهم ، ويرفع منزلة نفوسهم ، ويكلهم الى وحيه المنقذ لا الى تجاريبهم العاثرة ، وأن يقيهم مصارع المجالدات والمصادمات التى فنيت فيها الملايين من طلاب الحرية والمساواة والعدل من أصحاب الملل والنحل الأخرى

القرآن والحرية

شاء جلت حكمته ذلك فكتب أن يرسل القرآن بدين

الفطرة ، ليحرر بأوامره القدسية النفوس المغلولة ، وينجى من معاثر الجهالة العقول الضالة

وسيتبين مما اقصه كيف سار القرآن الكريم بالعقل البشرى فى سبيل الحرية ، واين حل بالعقل من المنازل العلية . بيد انه يجمل ان ننتهز هذه الفرصة لنناقش ما قد يجيش بخلد البعض من انه اذا كان دين القرآن هو دين الفطرة ، واذا كان مقياس صحة الاحكام فى نظر القرآن هو العقل والمنطق . فماذا عسى أن تكون فائدة الدين ؟ ولماذا لا يترك العقل البشرى يجاهد وحده فى سبيل الحق والحقائق ، حتى يبلغهما ، وينقب عن الخير والشر والنافع والضار ، حتى يفقه كنهها ، ويدرك حدودها ، ويعلم ما بينها من الفوارق والمميزات ؟

الى امثال هؤلاء نقول ان من الممكن ان تصل العقول البشرية بالبحث والتنقيب والتجاريب الى ما تصبو اليه النفس الانسانية ، من مراتب الكمال فى الأحكام ، والتصورات والنظم الاجتماعية ، والمسائل العلمية والآداب الخلقية ، ولكن فى سبيل ذلك عقبتان لا بد من تسنمهما حتى تتحقق مثل تلك الأمنية : احداهما عادية والأخرى طبيعية

فاما الاولى فهى ضرورة انسلاخ عدة من القرون فى التجاريب والأبحاث التى يقتضيها الوصول الى ما تنشده النفس البشرية من وجوه الصواب المطابقة للمصلحة

واما الثانية فهى ناموس النشوء والارتقاء ، أو التطور التدرجى الذى بالاعتماد عليه وحده فى عالم المعقولات

والمعنويات ، لا يمكن ان يصل العقل البشرى الى مرحلة ، حتى يكون قطع ما قبلها من المراحل

على ان ثمة عوامل اخرى تكتنف سير العقل فى احكامه وأبحاثه ، وكثيرا ما تقوم منها العوائير التى قلما ينجو معها من السقوط والزلل . وأهم تلك العوامل الانفعالات النفسية ، والاضطرابات العصبية ، التى لا يجهل احد منا آثارها فى شعب الحياة الاجتماعية والعقلية والأدبية . ومن المغالطة ان نبرىء انفسنا أو ندعى بلوغ الكمال فى شىء من افكارنا واحكامنا وعواطفنا ، ما دمنا نجمع بين جنوبنا نفوسا جامحة ، الى قلوب متقلبة ، الى شهوات مطاعة ، الى هوى متبع

فالدين فيما أراد منزله جل شانه ضرورى لاصحاب تلك الأهواء المتقلبة والنفوس الجامحة

لذلك ، وللسلوك بالناس اقصر طريق واقومه واسلمه ، يرسل الخالق صفوة خلقه بالهدى ودين الحق رحمة بعباده ان تزل اقدامهم ، وتضل احلامهم ، وتفتنهم اهواؤهم ، وتضيع مئات السنين أو آلافها فى البحث عما تصبو اليه نفوسهم من العلم والحرية والمساواة والعدل ، وسائر الفضائل والكمالات

□

جاء القرآن بدين الفطرة فى كل شىء ، فطابقت قواعد احكامه واصول آدابه وشرائعه ، مقتضيات الفطرة البشرية ، حتى لقد كان من امهات اصوله فيما هو خاضع لتاثير

المؤثرات ، وعرضة لتعاقب التطورات ، ان يكون العرف فى كل امة مقياس تقديرها ، ومن هنا كان لا بد ان تختلف المسائل الفرعية باختلاف الأزمنة والأمكنة والعرف الخاص فى الشعوب والاقوام المختلفة ، وبذلك طابق القرآن مطالب العقل ، غير متنكر لما فطرت عليه طبيعته ، ولا متجاهل مبلغ سلطانه وآثاره فى الحياة الاجتماعية بجميع شعبها

عرف القرآن ان الانسان مفطور ، منذ بدأ احساسه وشعوره ، على البحث عن علل ما تدركه حواسه من الأحداث والكائنات ، فزاد تلك الفريزة تنشيطا وانعاشا ، وما انفك يقرع الجامدين على المنقولات ، المحصورين فى مضايق التقليد ، فلا يكاد يخلو له مقام من دعوة الى تدبر وتفكير ، ولا تنفرد له مجادلة عن حجة يقيمها على الخصم او برهان يحاكمه به اليه

لم يكن من منافرات العقل ان يأتى القرآن فيدعو الناس الى الايمان بالرسل والأنبياء ، والأخذ بما كلفوا تبليغه من الأحكام والشرائع والآداب والفضائل ، فان ذلك للمتدبر من مقتضيات العقل وطبيعته . فمن ذلك ان العقل مفطور على الشعور بالحاجة الى ما يدفع عادية الأفراد والجماعات بعضهم على بعض « ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الارض .. الخ » كذلك هو مسوق بغريزته الى ان يضع او يقبل كل ما يرى فيه ضمانا لنظام الحياة الاجتماعية فى العالم الانسانى ، وبما ان عقل الانسان معرض للافلاس والزلل فى معالجة الشعب التشريعية والادبية والعلمية ، على ما بسطناه فى محاضرة اخرى ، كان بطبيعة الحال ميالا الى

الطمأنينة ، والسكون الى من يثق به ، والى قبول ما يكفيه عناء البحث والتنقيب ، ويقيه مخاطر المغامرات التى تستلزمها الظنون والتجاريب ، شاخصا الى وحى ينزله المحيط بما عليه البشر من الفطر والغرائز والطباع ، العليم بما فيه صلاح شأنه واسعاد حياته ، وان حرص الانسان بفطرته على التماس اقصى الطرق المؤدية الى ما ينشده من الرغائب والكمالات ليدفعه الى طلب القدرة التى تسكن اليها نفسه ، وتقبل ما يصدر عنها من الأقوال الحكيمة ، والنصائح القويمة ، وهذا هو سر اندفاع العامة ، واكثر الخاصة ، الى الاعتقاد فى افراد من الناس يرجون ان يبلغوا بهم منازل الكمال ، ويعيشوا بهديهم فى سعادة وسلام من الانبياء والرسل ، وممن على قدمهم من الدعاة . وانما طبع الانسان على ذلك لانه يكره أن يتدرج فى تعرف الفضائل وطلابها ، تدرجا قد لا يدرك فى غضونه صواب امره او لا يضمن سلامة سبيله ، فهو حذر الوقوع فيما يخشى عواقبه من شتى الاعمال والتصرفات والأحكام يميل بفطرته الى الاصاخة والاستماع الى المبشرين والمنذرين من الدعاة عسى أن يجد فيما يدعونه اليه ضالته المنشودة التى يصبو اليها ، وقلما عرف لها سبيلا اذا ترك هو وشأنه

فالانسان بفطرته السليمة وعقله الحر ، مدفوع الى الطمأنينة ، والاعتقاد فيمن يسلك به سبل السلامة ، من الخطأ والخطل والزلل ، حذر أن يفوت عليه جهله وضلال فكره ومعوج سعيه بعض ما تصبو اليه نفسه من طيبات الرغائب وجميلات المطالب ، وبمقتضى هذه الفطرة اقيمت

المدارس والجمعيات التهذيبية ورجال المذاهب الصوفية وانكب الناس عليها من جميع الطبقات ، ومختلف الأسنان فى سائر الأزمان

القرآن يخاطب العقل

تقدم أن القرآن لم يذر وسيلة موصلة الى انعاش العقل وتحرير الفكر الا تذرع بها ، فهو اذا تحاكم فالى العقل ، واذا حاج فبحكم العقل ، واذا سخط فعلى معطل العقل ، واذا رضى فعن أولى العقل

جادل القرآن من جادل من أرباب الملل والنحل،والماديين والدهريين ، فما قارعهم الا بالبرهان ، ولا دعاهم الا الى البحث والنظر ... من ذلك آية « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ». وكم من آية قرع فيها أولئك الضالين لالغائهم عقولهم أو لاحتباسهم اياها على ما وجدوا عليه آباءهم ، ولو جيئوا بأهدى منه كما فى آية « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون »

ومن الآيات التى هزمت أشياع التقليد،المعطلين لعقولهم فى كل زمان ومكان شر هزيمة ، قوله تعالى فى الآيات « ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » و « ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون »

ولا تكاد تمر بك آية فى المجادلات الا وهى مختومة بمثل « بل أكثرهم لا يعلمون » . « قليلا ما تذكرون » . «هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » . « انى يؤفكون » . « لو تشعرون » . « أفلا تسمعون ». « انما يتذكر أولو الألباب» وهلم جرا

وقف القرآن الكريم فى جميع مقاماته ، لدى ما اقتضته طبيعة الدين الذى جاء به ، فاذا دعا الى عقيدة ، أو ركن من أركان الدين ، تجافى عن الالزامات التى لا تحيط بها العقول ولا تدركها الافهام . وكلما هم بتلقين أصل من أصوله ، بدأ بالمقدمات النظرية ، ثم ينتهى بالتحذير من جحودها عنادا وكفرا وذلك كما يقول فى آية « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة » وآية « لكيلا يكون للناس على الله حجة »

ولم يكن منزل القرآن جلت حكمته ، وهو خالق الانسان ومالك القلوب والأسماع والأبصار ، لم يكن فى شىء مما أوحى من آياته الا مثال الكمال المطلق اللائق بأسمائه الحسنى التى منها العدل والحق والخبير ، فهو الذى لم يجعل من رسله جبارين مسيطرين ، ولكن مبشرين ومنذرين « فذكر انما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر ». « فهل على الرسول الا البلاغ المبين » . « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين». « وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق» . «ما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد »

ان أول ما بدأ به القرآن فى التحاكم الى العقل الايمان

بوجود الله ، فان القرآن ، ومن ورائه علماء الكلام وأصول الدين ، كلهم مجمع على ضرورة طلب تلك العقيدة من طريق النظر والاســتدلال ، حتى ان منهم من لم يقبــل الايمان التقليــدى بالله وان أفتى الغزالى وأمثاله بقبــول الايمان التقليدى من العـامة والدهماء الذين لا يستطيعون البحث والنظر اما لجهلهم بوسائله أو لضيق مداركهم عن شرائطه، فاكتفوا من هؤلاء بالايمان الثابت رحمة بهم ، ووقوفا معهم عند مدى موسوعاتهم ، وان كان تقليديا لم يقم على شىء من دعائم العلم الصحيح والبحث النظرى

فاما دعوة القرآن الكريم النـــاس الى البحث والنظـر والتحاكم معهم الى التفكير والعقل،فانهما لا تكاد تخلو منهما سورة من السور ، واستيعاب ذلك مما يضيق عنه هـــذا المقام ، فلنجتزىء هنا باقتباس شىء من هــذا فيما يلى من الآيات :

١ ـ « وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعـــل فيها زوجين اثنين ٠ ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون٠وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها عـلى بعض فى الأكل ٠ ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »

٢ ـ « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسـحاب المسخر بين

السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »

٣ ـ « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الارض كيف سطحت »

٤ ـ « وفى أنفسكم أفلا تبصرون »

٥ ـ « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

٦ ـ « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء »

□

ولا يتسع هذا المقام لاستقصاء ما جاء من ذلك فى القرآن الكريم ، فلنكتف بما اقتبسناه هنا ، منتقلين الى البحث فى مسألة تخبط فيها كثير من الباحثين . تلك هى : ما مصير من لم يقصر فى النظر والبحث ، ولكنه مع ذلك لم يستطع الوصول الى العقيدة الحقة فى الدين ؟

للعلماء فى هذا المقام آراء مبسوطة فى الكتب المختصة بها ، ولا يعنينى هنا الا أن أعتمد على آيات القرآن دون ما قالوه ، فأستفتيها فى حكم ذلك الفريق من الناس ، الا اننى قبل ذلك أسترعى ذهن القارىء الى المسلمات الأولية التالية :

(١) أنه ليس فى استطاعة العقل البشرى ، اذا قام عنده الدليل الصحيح على حكم ، أن يرتاب فيه

(٢) أنه ليس فى مقدور العقل البشرى أن يقول بجواز صحة أمرين متناقضين معا

(٣) اذا تعارض حكمان يعتمدأحدهما على الحجج القاطعة، كان من المستحيل تكليف العقل أن يغلب على سواه

لاحظ دين الفطرة جميع هذه القضايا الفطرية ، وجاء كتابه السماوى مصدقا لها ، ثم جاء الخلف من العلماء يؤيدونها ، ولكنهم ان اختلفوا بعض الشىء فيما عن لهم من الآراء ، تجدهم أجمعوا على قاعدة أنه يجب أن يؤول الى حكم العقل من الشرعيات ، ما ظاهره يخالف العقل

وهل هذا الا وقوف عند حدود المسلمات العقلية،ونزول على حكم الفطرة البشرية ، وهل كان للعقائد أن تكون بالجبر والارغام ؟ أم هل كان لدين الفطرة ، دين البحث والنظر ، أن يكلف بالعقيدة من قصرت عقولهم عن ادراكها ، أو من تزاحمت عليهم الشكوك والشبهات،حتى عجزوا عن صدها ومدافعتها ؟

وهل يقول بهذا القول ذلك الدين ، الذى قوض دعائم الايمان بغير المعقولات ، وأقام على أنقاضها عقيدة الايمان اليقينى المتحصل من طريق العقل والنظر ؟

ان الله تعالى لأحكم وأعدل أن يكلف الناس ما ليس فى طاقتهم ، أو أن يلزمهم الايمان بما لم يهدهم الى حجته وبرهانه . يفقه ذلك من يتدبر قوله تعالى : « لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »

اذن فلنعد الآن الى سرد آى القرآن الكريم المناسبةلهذا المقام مكتفين منها بما يلى :

١ ـ « قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنـــده فعميت عليـكم ، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ »

٢ ـ « نحن نعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد »

٣ ـ « قد بينا الآيات لقوم يعقلون٠انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم »

٤ ـ « ان عليك الا البلاغ »

٥ ـ « انما أنت منذر »

وخلاصة القول أن القرآن ، الذى هو كتاب دين الفطرة، ما كان ليأتى بما ينافي الآراء القويمة ، أو تغم حكمته على العقول السليمة،ولم يكن ليكلف العقل الايمان بما لا يعقل، أو يحمل الجسم ما لا طاقة له به ، أو أن يفترض على الانسان ما ليس من موسوعات فطرته ٠ اذا فوظيفته فى البشر رسم أقرب الطرق الى الهداية وحفظ العباد عن مواطن الهلكة التى يغشاها طلاب الحق والحقيـقة ، لا من طريق الوحى بل من طرائق التجارب ، ومصارعة شـياطين الانس من الحكام الجائرين ، وعصابات رجال الدين المضـللين ٠ ولنا على ذلك ما نشاء من الأدلة والشـواهد ، لننظر كيف ومتى صحت عزيمة الأمم الغربية ازاء الطـلاق وتحريم الخمر والقمار ، وكيف ومتى تحررت فيهم العقول البشرية ، أو أبيحت حرية التفكير والنشر،وتقررت بينهم حقوق الانسان، سائلوا الثورات الدينية والسياسية تنبئكم مبلغ ما أريق فيها من الدماء ، وأزهق فى سـبيلها من الارواح ٠ سلوها

تصف لكم فواجعها وأهوالها ، وما أصاب الأمم من شرورها ونكباتها

موقف القرآن الكريم ازاء المعجزات

لست هنا فى مقام المتعرض للبحث فى أمر وجوب المعجزات وخوارق العادات اثباتا أو نفيا ، ولا انا فى مقام المعرف بكنهها المحصى لأنواعها وأقسامها ، فان شيئا من ذلك ليس مما نقصد اليه هنا ، ولكن الغرض الذى نرمى اليه فى بحثنا الحاضر هو موقف القرآن الكريم ازاء المعجزات والخوارق . ذلك لنعلم هل يرى فيها القرآن ما رأته الأديان الأخرى من اعتبارها أسسا للعقائد الدينية ، وآيات قاطعة تكفى أن يعتمد عليها الرسل والانبياء فى افحام المتحدين لهم من الأمم التى يرسلون اليها ؟ أم هل يرى فى طبيعتها وقوة حجتها ـ مع دعوته الى التعقل وحضه على النظر والتدبر ـ ما يخرجها عن دوائر الأدلة العقلية والبراهين البينة القطعية الملزمة للخصوم بما تقصد له من النتائج ؟

فلا يلتبسن الأمر على القراء ولا يغيبن عن أفكارهم هذا المقصد

امتاز الاسلام من بين الأديان ، كما أسلفنا غير مرة ، بانه دين الفطرة والعقل ، كما امتاز رسوله من بين الرسل بانه الرسول الفطرى الذى أرسل بالحق والهدى بشيرا ونذيرا . فميزان صحة هذا الشرع المنيف ، وقسطاسه المستقيم ، هو أن جميع ما جاء به من الاحكام والمراسم ، وضروب المواعظ والارشاد ، ليس منها ما ينافر العقل الصحيح ، ولا تأباه النفوس السليمة . اذن فما كان له أن

يتأيد بما ليس من حـــدوده ، ولا أن يطابق ما ليس على شاكلته

كذلك جاء القرآن الكريم بهذا الدين،دين العلم والحكمة، دين البيان والبرهان،ولكن الأقوام الذين أنزل فيهم كانوا أهل جهالة وعناد،وعباد أهواء وشهوات ، جهلوا سرالاسلام وروحه ، فاستمسكوا بما استمسك به آباؤهم الأولون من طلاب المعجزات والخوارق . ولم يكن طلب تلك المعجزات من الرسول ناجما عن ترو وصدق رأى،ولكنهم كانوايقترحونها اما عبثا أو عنادا ، أو التزاما لما أرضعتهم الجاهليـة الأولى من الضلالات والأباطيـل ، وفقدان العلم . « وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية . كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم . تشابهت قلوبهم . قد بينا الآيات لقوم يوقنون . انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم . ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير »

ظل النبى عليه الصلاة والسلام كلما طلبوا منه المعجزات يدعوهم الى العمل بمقتضيات الفطرة ، ويرشدهم الى كنه وظيفته النبوية ، وما هى سوى الهداية الى السبيل القويم وارشاد الناس قاطبة الى ما فيه الخير والسلامة فى معاشهم ومعادهم « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى ملك ان اتبـع الا ما يوحى الى . قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تفكرون »

رأى القرآن أنه لو كانت المعجزات الخارقة للعادة كافية مقنعة لما كذب بها الأولون بعد اذ ألحوا فى طلابها،وأجيبوا اليها ، فرأتها أبصارهم رأى العين • ولكن عدم وجود صلة عقلية بين تلك الآيات وبين ما أريدت له من اثبات رسالات الرسل كان من نتائجه القريبة أنه لا تكاد تنزل الآيات لطلابها حتى يسارع الى نفوسهم الشك فيها بعد الاصرار على طلابها واللجاج فى استنزالها ، فمنهم من يراها من أنواع السحر،ومنهم من يكذب بها بغيا وعدوانا « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل انما الآيات عند الله وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون • ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون • ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمتهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون »

ولو أن جهل أولئك الأقوام كان جهل المستفيد المتدبر المستهدى ، لما أصروا على طلاب ما قد طلبه أسلافهم ملحفين، ثم تولوا عنه بعد اذ جاءهم مدبرين مكذبين• ولكن كان ذلك منهم جهل عناد واعنات ، ولهذا لم تفدهم هدايات القرآن الكريم ، ولم تزدهم بيناته الا عتوا واستكبارا « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا • أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا• أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل

كنت الا بشرا رسولا» ، «ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين »

يقص علينا القرآن فى غير موضع انه طالما كذب المشركون وأهل الكتاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأمعنوا فى اعناته وايذائه ، ولجوا فى زعمهم انه لو جاءتهم آية ليؤمنن بها . كما يقص علينا أنه لو كانت المعجزات الخارقة من البراهين التى لا يفر المعاند من الخنوع لها لأمد الله بها رسوله ، ولأيده بما لا يحيط به الحصر من ضروبها . ولكن علمه الله أن هذه الآيات قد نزلت بمن قبلهم فظلموا بها ، واستنكرتها أنفسهم بغيا وعلوا . ولهذا يبين لنا فى صراحة ووضوح أن الله سبحانه وتعالى أبى أن يؤيد هذا الدين الا بالمعجزة التى لا تنافر فطرته ، ولا يقوى معاند على معارضتها . تلك هى القرآن الكريم نفسه « أو لم يكفهم أنا نزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم . ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون »

والمتتبع لآيات الكتاب الكريم يجد أن الرسول عليه السلام ما سئل معجزة من المعجزات الا تلطف بطلابها وأرشدهم فيها الى الأخذ بأسباب العلم والهدى وسماهم تارة بالجاهلين ، وأخرى بالذين لا يعلمون . ولا ترى فى القرآن جميعه أن الرسول عليه السلام جارى أولئك الحمقى فى سبيل مطالبهم ، وجاءهم بشىء من المعجزات التى سألوها ، وقد جاء هذا صريحا فى قوله تعالى « وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون . وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفا »

قال ابن جرير الطبرى فى تفسيره لهذه الآية : «يقول تعالى ذكره وما منعنا يا محمد أن نرسل بالآيات التى سألها قومك الا أن من كان قبلهم من الأمم المكذبة سألوا مثل سؤالهم،فلما أتاهم ما سألوا عنه كذبوا رسلهم فلم يصدقوا مع مجيء الآيات فعوجلوا ، فلم نرسل الى قومك بالآيات لأنا لو ارسلنا بها اليهم فكذبوا بها سلكنا فى تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلهم »

وما كان مبعث الاضراب عن اجابة مطالبهم والحافهم فى سبيل المعجزات عجز الله تعالت قدرته عن تبديل شيء من ظواهره الكونية العادية . ولكن علم الله منهم ما علم من آبائهم الأولين ، لجاج فى الطلب ، وجنوح عن التصديق ، وجهل بمكانة دين الفطرة ، وضلال عن ركنه المتين ، وهو مطابقته التامة لمقتضيات العقل السليم « وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ، قل ان الله قادر أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون» وقد أسلفنا أنه لوكانت دلالة المعجزات الخارقة للعادة على الرسالة أو النبوة قطعية اقناعية ، لما أمعن المعاندون فى تأويلها تارة وانكارها أخرى ، وما قوله تعالى « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » الا لبيان هذه الحقيقة . ذلك أن الخوارق للعادة ضروب شتى . فمنها ما يظهر على أيدى المصطفين الأخيار من أنبياء الله ورسله ، ومنها ما يظهر على أيدى غيرهم من السحرة والمشعوذة ، ومنها ما يظهر على أيدى أرباب الرياضات الروحانية ، حتى من المجوس والمشركين

لهذا كان من المحتملات القريبة أن يتشكك الناس فيما يقارن دعوى الرسالة من المعجزات التي يراد منها اقناع المدعوين الى صحة الرسالة ، واثبات أن الرسل صادقون في دعواهم السفارة بين الله وبين خلائقه في تبليغ أحكامه وآدابه ، ولا يكفي في التفرقة بين المعجزات وغيرها من الخوارق التي تظهر على أيدي غير الأنبياء أنهم مبعوثون من قبل الله الى خلائقه لتبليغهم أحكامه وعظاته . فقد عرفنا من آيات القرآن أن الكافرين كانت تأتيهم الآيات بعد اذ يطلبونها من أنبيائهم ورسلهم ، فتارة يقولون هي سحر مبين ، وأخرى ينكرونها معاندين

فالاسلام فيما يصوره القرآن الحكيم قد امتاز عن غيره من الأديان الاخرى بأنه دين اليقين والنظر ، لا دين خوارق العادات ، وما وراء العقل من الآيات . ذلك قوله تعالى « قد بينا الآيات لقوم يعقلون . انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا »

فآيات القرآن الكريم لم تنزل ليقتنع بها من شغلتهم أوهامهم ووساوسهم ، وتعطلت في حنايا جماجمهم عقولهم ومداركهم ، فسبحوا في لجج من الوهم ، وحجبوا بعنادهم عن النظر والفهم ، ولكنه جاء لمن يعقلون ويفقهون أن الله لا يرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ، وأن معيار صحة رسالات الرسل صحة ما يأتون به من البلاغ السماوي ، وضمان ذلك لسعادة الانسان في حياتيه الدنيا والأخرى

ولقد بلغ حرص الرسول عليه الصلاة والسلام على قومه حدا كان يكبر عليه فيه اعراضهم عن دعوته ، واصرارهم

على مخالفته ، والكفر بآياته حتى كأنما هو بلا مراء مسئول عنهم ، وحامل لأوزارهم . فأنزل الله فى تسليته واراحة نفسه من عناء الحزن عليهم وآلام الرحمة بهم قوله : « ولا تسال عن أصحاب الجحيم » . « ان عليك الا البلاغ » . « انما أنت نذير »

□

ولكم شق على المصطفى صلى الله عليه وسلم انصراف قومه عن هدايته بسبب تخلف المعجزات ، فكانت نفسه الشريفة تطمح آونة فى أن ينزل الله شيئا من آياته مجاراة لأولئك الضالين المعاندين ، ولكن الله الذى أدب رسوله وأكمل عقله أراه فى آية « وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الارض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » . أراه فى هذه الآية الكريمة أن من الجهل مجاراة الجاهلين ، وأن ليس للعاقل أن يحرص على الخراف الضالة من أشباه الانسان

وهل كان للرسول عليه الصلاة والسلام ، بعد اذ بلغ رسالات الله على وجهها أن يضيق صدره بما كانوا يعرضون، وأن يحزنه الذى يقولون ، أو مصيرهم الذى يوعدون، فانهم ما كانوا يكذبونه ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، فما عليه اذن من حسابهم من شىء ، بعد اذ قام بما حمله من التبليغ المبين : « واما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب »

وهنا مبحث يجب أن نعجل الالمام به لكثرة ما خاض فيه الخائضون ، ذلك أن آيات القرآن الكريم جميعها ناطقة صراحة بأنه لا اكراه فى الدين، وأن الرسول غير مكلف بشىء سوى التبليغ المبين ، والتذكير بآيات الذكر الحكيم « فذكر انما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر » . وهل كان للرسول عليه الصلاة والسلام أن يقوم فى قومه مقام الجبارين ، فيقتلهم أو يحرقهم لمجرد اعراضهم عن دينه بعد آية : «نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد »

فالاسلام الذى هو دين الفطرة ، ومجموع الكمالات القدسية ، والآداب الالهية ، ليس بذلك الذى يتذرع اليه بالقسوة والغلظة ، ويروج فى العالم بالسيوف والنيران

ومن الأوليات المسلمة أن العقائد لا تتكون فى نفوس العقلاء بالقوة والقهر ، ولكن لها وسائل معروفة لا تلتمس الا بها ، فمنها البرهان العقلى ، والخطابة والشعر والتقليد، ولكل من هذه الانواع تأثير فى نفوس الناس ، بمقدار ما فيهم من العقول والتجارب والذكاء والتحصيل ، وانما اعتبرنا التقليد من وسائل اليقين، لما نعلمه من أن من العامة من لا يكاد يمكن زحزحته عن عقيدته التى ورثها بمحض التقليد والاقتداء ، ولو كانت غير معقولة ، ومنافرة للعقل السليم ، وأقرب دليل على ذلك ما عليه النصارى من عقيدة التثليث ، وقولهم ان عيسى صلب ليفتدى أتباعه بدمه ، وليكفر عن العالم جميعه ما ورثوه كرها من سيئات آدم

أبى البشر ، وهكذا من العقائد غير البينة

كذلك من عامة المسلمين من لا يمكن أن يتطرق الريب والمرية الى عقيدته على جهله ، وعدم تحصيله وقصور عقله، وما هى سوى قول تلقفه ممن يثق به ، أو أمة وجد عليها آباءه فاقتفى فيها آثارهم

ما كان للعقائد أن تتكون بالارغام والقهر ، ولا للاسلام الذى هو دين البحث والنظر أن يقول بقتل من لا يدينون به ممن قصرت عقولهم عن دركه ، أو تزاحمت عليهم الشكوك والشبهات حتى عجزوا عن صدها ومدافعتها

أما المشركون وأهل الكتاب فقد أرتنا السنة المطهرة والقرآن الحكيم أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد اكتفى منهم فى حقن دمائهم واحترام حقوقهم بالجزية اذا أبوا الاسلام ، يدفعونها فى سبيل حماية أرواحهم وأموالهم واستمتاعهم بما للمسلمين وعليهم ، فهم اذا ما دفعوها كان لهم ما للمسلمين من الحقوق ، وعليهم منها ما عليهم

أهل الردة

أما أهل الردة الذين دانوا لله ، والتزموا الاسلام ، ثم ارتدوا عنه ـ اما الى غيره من الاديان واما لشبهات وشكوك قامت بصدورهم فصدتهم عن البقاء على شىء من أصوله ، ويسمى الفقهاء جميع هؤلاء بالمرتدين ويفتون فيهم بالقتل، اما بعد الاستتابة أو دونها على خلاف لهم فى ذلك ـ أما هؤلاء فان علينا أن نبين هنا رأينا فيهم طبق ما يدل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية فنقول :

ان ذكر الردة جاءنا في موضعين من القرآن الكريم ، ففى سورة البقرة جاءت آية : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »

وفى سورة المائدة جاء قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم »

وظاهر أن هاتين الآيتين لا تدلان على معاملة أهل الردة بما أفتى الفقهاء من القتل لمجرد الرجوع عن الدين ، وكل ما دلت عليه آية البقرة - المذكورة آنفا - أن المرتدين مطرودون من رحمة الله تعالى، ومعنى الردة هنا - على ما يظهر من سياق الآية ومن روح الكلمة - أن معناها الارتداد عن الدين ، أى الكف عن الجهاد فى سبيله ، والارتداد عن منازلة الأعداء الذين كانوا لا يفتأون يقاتلون الرسول وأتباعه ليفتنوهم عن دينهم ويرجعوهم كفارا بعد اذ آمنوا

يدلك على هذا التأويل ما جاء قبل ذلك من الآيات. قال تعالى : «كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة

اكبر من القتـــل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا »

يستنبط من ظاهر هذه الكلمات الكريمة أنها نزلت فى قوم من المسلمين كانوا يهمون بالكف عن القتال ،ويرغبون عن أن يدافعوا عن دينهم ، وأن يبذلوا مهجهم وأرواحهم فى نصرته وتأييده ، بغضا للقتال ، وضنا بالارواح،وما علموا لجهلهم أنه ليس وراء اخلادهم الى العدو واعراضهم عن صده سوى أن يستذلهم ذلك العدو ويتعبدهم ، وأن الموت الذى يفرون منه لا ريب ملاقيهم ، الى ذلك يشير قوله تعـــالى : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم »

ولو أن أولئك النفر أدركوا بســـهولة ، ما وراء هاتين الكلمتين القدسيتين من الحكم البـــالغة ، والمنافع العظيمة ، ما سألوا بعد ذلك رسولهم عن القتال فى ســـبيل الله خلال الاشهر الحرم ، ولكن وهنت قلوبهم ، وتمكن حب الحياة من نفوسهم ، وقصرت أبصارهم عن درك ما وراء ذلك من الذل الخالد والمسكنة الأبدية ، واستهانوا بامر الفتنة فى الدين، فجنحوا الى التسليم ، واغماد السيوف ، سائلين الرسول عليه الصلاة والسلام عن القتال خلال الشهر الحرام ،كأنهم يريدون بذلك أن يجد لهم من تحريم هذا الشهر معذرة عن القعود عن مقارعة الأعـــداء ، وحماية دين الله من الأذى والمكر السىء

ولما كان ذلك الرهط على ما وصفنا من الضعف والجنوح الى النزول على حكم أعداء دينهم من المشركين واهل الكتاب،

جاء فى استنفارهم وحثهم على منازلة أعدائهم قوله تعالى بعد ذلك : «ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »

ذلك حكم الله فى المسلمين ، اذا ما فتنوا عن دينهم ، وقاتلهم عن البقاء عليه أعداؤهم ، وما جزاء من يجبن عن لقاء عدوه ، ويرغب عن بذل روحه فى سبيل حماية دينه وملته « الا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما يفعلون »

فالردة فى هذه الآية الكريمة ليست الفسوق عن العقائد الاسلامية لشبهة قامت بأنفس المرتدين ، ولكنها ردتهم عن نصرة الاسلام ، وتخلفهم بأنفسهم عن تأييده ، وحماية ذماره ، بينا أعداؤه لا يفتأون يناوئونه ويكيدون له ، ولا يزالون يحاربون رسوله والقوامين عليه

وهذه الآية وان لم تنص على قتل أولئك المرتدين ، فقد أرتنا السنة المطهرة كيف قاتلهم الرسول وخليفتاه أبو بكر وعمر من بعده ، وكيف نكلوا بهم اذ كفوا عن الدفاع عنه ، ثم انقلبوا خوارج عليه ، يحاربونه ويقتلون أهله تأييدا للمشركين من أقوامهم وتوهينا لبنيانه ، بعد اذ ظهروا على عورات المسلمين ، ووقفوا على مواطن الضعف فيهم . ذكر صاحب الكشاف أن احدى عشرة فرقة من العرب ارتدت عن الاسلام ، ثلاث فى زمن الرسول عليه السلام ، وسبع فى خلافة أبى بكر ، وواحدة فى عهد عمر ، وقد كفى الله الاسلام ما أرادوه من تخذيله وتوهينه ونقض أركانه

ذلك قولنا فى آية البقرة . أما آية المائدة فان المتدبر للآيات السابقة لها فى القرآن الكريم ، يتبين أنها لا تكاد تخرج عن المعنى الذى نزلت فيه آية البقرة ، ذلك أن قوما من منافقى المسلمين قد وهنت قلوبهم وعزائمهم ، فجعلوا يخشون أن تصيب المسلمين دائرة فيظهر عليهم أعداؤهم من أهل الكتاب ، هنالك جعلوا يخالطون اليهود ويسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، يريدون بذلك أن يتخذوا لهم يدا عندهم ، حتى اذا كان ما حسبوا وخشوا ، سلموا من بطشهم وأذاهم . وفى هؤلاء نزلت الآيات : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم انهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين »

اتخذ هؤلاء المنافقون بطانة لهم من غير المسلمين، ليكونوا لهم شفعاء اذا وقع ما خشوا وحسبوا ، وأسرعوا خفية الى الاندماج فى سلك أهل الكتاب لتوقعهم سرعة غلبهم وظفرهم بالنبى عليه الصلاة والسلام وأشياعه ، فكفوا بذلك عن نصرته وتأييده ومظاهرته على أعداء دينه من اليهود والنصارى . ولولا أن الله تعالى أتى للمسلمين «بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى

سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، لأصاب المسلمين من ذلك المكر السيء الذى بيتـه أولئك المنـافقون ، ومن تخلفهم وارتدادهم ، وتوليهم عمدا عن نصرة دين الاسلام ومناصرة أهله ، ما قد كان يمحو آثار التوحيد ، ويرفع منار الشرك فى الارض

فالارتداد فى آية المائدة ـ كما رأيت من السياق ومن نظم تلك الآية نفسها ـ انما أريد به تولى أولئك المرتدين عن نصرة الاسـلام ، والتخلف عن درء الأذى عن اخـوانهم المسلمين ، تاركيهم لغارات أعدائهم

▭

ومن الآيات التى جاءت فى هذا الموضوع ، واختلف فيها أهل التأويل قوله تعـالى : « فما لكم فى المنـافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا ، أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا • ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا ، الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ، ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم ، فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم ، فما جعل الله لكم عليهم سبيلا • ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ، كلما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها ، فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم ، فخذوهم واقتلوهم حيث

ثقفتموهم . وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا »

أى ما شأنكم أيها المؤمنون فى أهل النفاق فئتين (١) والله ردهم الى أحكام أهل الشرك المحاربين فى اباحة دمائهم

نزلت هذه الآيات على رأى فيمن تخلفوا عن الحرب فى وقعة أحد ، وانصرفوا الى المدينة قائلين : « لو نعلم قتالا لاتبعناكم » وهذا التأويل يلحق هؤلاء المتخلفين بالفارين من الحرب الذين تبيح القوانين الحربية فى كل زمان ومكان ودولة دماءهم . على أن الآيات السابقة قد جاءتنا بحقن دماء طائفتين من هؤلاء وهما : من يصلون الى قوم بينهم وبين المسلمين موادعة وميثاق وعهد . و من جاءوا المسلمين وقد حصرت صدورهم أى ضاقت عن الميل الى مقاتلة المسلمين او مقاتلة أقوامهم ، فلم يجعل الله بذلك سبيلا للمؤمنين على أنفس هؤلاء وأموالهم وذراريهم ونسائهم

وقال آخرون : بل كان اختلاف المؤمنين فى قوم من أهل الشرك كانوا أظهروا الاسلام بمكة وكانوا يعينون المشركين على المسلمين ، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم ، فقالوا ان لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس

فأصحاب هذا التأويل على ما وصفنا يرون أن الآيات الكريمة نزلت فى منافقين غير مسالمين ولكنهم خونة غدارون

والقول السديد الذى ارتضاه الطبرى فى تفسيره ، وهو الذى أراه ، أنها نزلت فى قوم من أهل مكة لا المدينة ارتدوا بعد اسلامهم فكانوا حربا على المسلمين مع قومهم ويؤيده قوله تعالى : « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا ، فان

---

(١) تفسير الطبرى جزء ٥ صفحة ١١٢ الى ١١٨ مع بعض تصرف

الهجرة لم تكن فرضا على أهل المدينة ومع ذلك فهى مقيدة باستثناء الطائفتين الواردتين فى قوله : « الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ، ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم ، فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا »

ومن هنا يتبين أنه لا علاقة لهذه الآية بمسالة الارتداد عن الاسلام لمجرد شبهة لم يستطع صاحبها ردها ، وفكرة عجز عن دفعها

□

ذلك ما جاء فى القرآن الكريم ، فلننتقل الى ما ورد فى السنة فى هذا الباب ، فنقول :

ان الأحاديث التى وردت فى هذا الباب كثيرة ، وجلها من الآثار المروية عن عمر أمير المؤمنين، وعلى بن أبى طالب، وابن عباس رضى الله عنهم . أما ما عزى الى الرسول عليه السلام فى ذلك وصح سنده ، فقليل جدا ، ومنه أن قد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتل المرتدين المحاربين

روى فى ذلك البخارى حديث النفر من عكل ، اذ قدموا على الرسول عليه السلام ، فأسلموا فاجتووا المدينة ، فامرهم أن ياتوا ابل الصدقة فيشربوا من ألبانها ففعلوا ، فصحوا ثم ارتدوا وقتلوا رعاتها واستاقوا الابل ، فبعث فى آثارهم ، فاتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم، ثم لم يحسمهم حتى ماتوا

وورد هذا الحديث لغير البخارى مع بعض تغيير زهيد

ولا مراء أن ذلك الحديث صحيح السند والمتن ، ولكن ذلك النفر من عكل ، فضلا عن ردتهم ، كانوا من أولئك الخائنين المحاربين ، الذين يسعون فى الارض فسادا، المنطبق عليهم آية : «انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض »

فلم يكن منشأ ما فعل الرسول (ص) لهم طروء شبهة لهم أوهنت فيهم عقيدة الاسلام ، أو حجة أرتهم صحة ما كانوا عليه من عبادة الأوثان ، ولكن لما رأينا من ارتدادهم الى محاربة المسلمين وايذائهم ومحاولة اللحاق بأقوامهم لمناصرتهم ومؤازرتهم ، فهم خائنون ومحاربون وساعون بالفساد فى الارض تنطق بذلك كله عبارات الحديث المروى آنفا عن البخارى فى شأنهم

أما غير المحاربين من المرتدين ، فللعلماء كلام طويل فى جزائهم ، فالجمهور من الفقهاء يقولون بقتل المرتد والمرتدة، عملا بعموم حديث (من بدل دينه فاقتلوه) . وخصه الحنفية بالذكور وتمسكوا بنهى الرسول عن قتل الأناث . وأما جميع ما ورد من الأحاديث فى قتل الرسول لبعض النساء المرتدات فأسانيدها ضعيفة . بل لقد قال ابن الطلاع فى الاحكام انه لم ينقل عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قتل مرتدة

وجمهور الفقهاء ، وان قالوا بقتل المرتد ، اختلفوا فى أمر استتابته قبل القتل ، فمنهم من أوجب أن يستتاب

أولا فان لم يتب قتـــل ، وذهب الحسن وأهل الظـــاهر وكثير غيرهم الى القتل فى الحـال • قال الشوكانى فى نيل الأوطار ، وعليه يدل تصرف البخـارى ، فانه اســتظهر بالآيات التى لا ذكر فيها للاستتابة والتى فيها أن التوبة لا تنفع ، وبعموم قوله (من بدل دينـه فاقتلوه) • ويرى النخعى أن المرتد يستتاب أبدا (أى فلا يقتل)

تلك أقوالهم فى هذا الباب،ولهم تفصيلات كثيرة لا حاجة الى استيعابها ، والذى نراه فى ذلك قد يخالف ما قالوه من وجوه،ولكن لا حرج علينا فيما نرجو ما دام عمدتنا فى ذلك كتاب الله الكريم وسيرة الرسول عليه السلام

□

وخلاصة رأينا فى ذلك أن القرآن الـكريم لم ينص فى آية ما على قتل المرتدين عن دين الاسلام الى دين آخر عـلى النحو الذى شرحناه فى تفسير آيتى الارتداد الســابقتى الذكر•وأما الاحاديث التى سردها البخارى واستدل بهاعلى وجوب قتل المرتد فورا ، فليس شىء منهـــا فيما نرى جاء نصا فى القول بالقتل ، ولا فى بيان حدود الردة وكنههـا والتعريف بها ، ولقد نستوفى الكلام فيها بعد بما لا غبار عليه ، بيد أنه يجمل بالباحث أن يتدبر المقدمات الآتيـة قبل استنباط حكم قاطع فى هذا الباب

أولا ـ ان القرآن ليس فيه نص قاطع على أن المرتد بالمعنى الذى يريده الفقهاء يقتل

ثانيا ـ ان لبدء ظهور الاسلام من الاحكام ما ليس لغيره•

ذلك أن المرتدين عن الاسلام يوم بدأ رسولنا الأكرم الدعوة الى التوحيد كانوا يعودون الى ما كانوا عليه من اليهودية أو النصرانية أو الوثنية ، وكانوا اذ ذاك يلحقون بأقوامهم ويحاربون المسلمين فى صفوفهم او يظهرونهم على عوراتهم ، فارتداد من كانوا يرتدون اذ ذاك عن الاسلام لم يكن لمجرد الخروج عن هذا الدين ، ولكن كان دائما مشفوعا بمظاهرة من يلحقون بهم من أقوامهم

والمستقرىء لأحاديث الباب لا يكاد يجدها تخرج عما قلنا ، فمعاملة رسولنا الأكرم وخلفائه من بعده للمرتدين، تلك المعاملة كانت فيما نرى لأنهم ينقلبون خائنين محاربين لله ورسوله والمسلمين. واننا لنرى اليوم أن الفار من الحرب أو الملتحق بجيوش العدو المحارب لحكومته يعتبر خائنا ويقتل من فوره ، ولو لم يرتد عن دينه ، فما بالنا لا ندرك سر قتل الرسول وخلفائه للمرتدين عن الاسلام الذين ان لم يقتلوا اشتدت بهم الفتنة وظاهروا قومهم على المسلمين ، وكشفوا لهم عن عورات هؤلاء ، ودلوهم على مواطن الوهن فيهم

ولقد كان منهم طائفة يؤمنون بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار ويكفرون آخره لعلهم يرجعون ، فالمرتدون فى صدر الاسلام كانوا فى الغالب ممن دخلوا فى الاسلام نفاقا ، وخرجوا منه للفتنة وكشف الأسرار

ثالثا ــ ان الردة التى جاءت فى آيات البقرة وغيرها كانت ارتدادا عن نصرة المسلمين والاشتراك معهم فى محاربة أهل الكتاب، لما كانوا يخشونه من ظهور هؤلاء على المسلمين، وظفرهم بهم يوما ما ، فأرادوا بذلك أن يتخذوا عندهم من

الأيادى ما يحقنون به دماءهم ويعصمون أرواحهم

رابعا ـ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا كيف نتصرف فى الحوادث،ونقف عند حدود مقتضيات الاحوال. ولنا من سيرته السامية وأعماله الحكيمة آلاف من الأدلة والآيات ، ولكننا ابتلينا بالجمود ، وضعفنا عن ادراك أسرار سيرته ودينه الفطرى ، ووقفنا عندحدود الألفاظ ، وأخذنا نتقيد ببعض الروايات . ولقد كان لنا من حكمة رسولنا الحكيم وعلمه الالهى ما يرشدنا الى أيسر السبل وأقومها لو كنا نعقل . ولنضرب لك أيها المتدبر المفكر فى ذلك بعض الآيات والشواهد

بدأ النبى صلى الله عليه وسلم يدعو الناس الى الاسلام ، وهم على ما نعلم من الجهالة والضلال والشرك المبين ، فكان عليه الصلاة والسلام يتدرج بالاقوام رويدا رويدا ، كما كان يلين لهم من جانبه ، ويتساهل فى مطالبهم ، تأليفا لقلوبهم واستمالة لهم الى التوحيد . ومن ذلك ما روى عن نصر بن الليث عن رجل منهم ، أنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسلم على أن يصلى صلاتين لا (خمسا) فقبل منه ، رواه الامام أحمد . وفى لفظ آخر له على ألا يصلى الا صلاة فقبل . وعن وهب قال : سألت جابرا عن شأن ثقيف اذ بايعت فقال : اشترطت على النبى أن لا صدقة عليها ولا جهاد ، وأنه سمع النبى عليه الصلاة والسلام يقول : « بعد ذلك سيتصدقون ويجاهدون » رواه أبو داود

وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل: « اسلم » . قال : « أجدنى كارها » . قال : « اسلم وان كنت

كارها ، رواه أحمد • قال الشوكانى ـ بعد أن سرد هـذه الأحاديث ـ فيها دليل على أنه يجوز مبايعة الكافر وقبول الاسلام منه وان شرط شرطا باطلا ، وأنه يصح اسلام من كان كافرا

فعل ذلك الرسول الكريم ، لما يعلمه من أن من المنفرات تكليف المدعو جميع أحكام الله فى آن واحد ، وأنه لا حرج أن يشترط المدعو ما شاء من الشرائط ، ولو باطلة ، فان دخوله فى الاسلام على أى وجه جدير أن يوجد فى نفسه من الميل للاســـلام والعطف على اخوانه المسلمين ما يدفعه الى بذل ما ضن به ونقض ما قدم فى بيعته من الشرائط • ينبىء بذلك قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث جابر المذكور آنفا (سيتصدقون ويجاهدون)

فانظر كيف فعل ذلك الرسول الحكيم ، فراعى مقتضيات الأحوال ، وأتى بما هو الأصلح للاسلام والمسلمين

وناهيك بما فعله فى صلح الحديبيـة ، من قبوله شروط قريش الأربعة ، ورضاه أن يرد الى المشركين من يجيئه منهم مسلما ، على ألا يردوا هم من فر اليهم من المسلمين • فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فيـــه من الأسرار والحكم البالغة ، مما لم يفقهه الذين شهدوا ذلك الصلح من الصحابة الا بعد أمد غير قصير

لقد كان الاسلام يوم بدأ غريبا ضعيفا ، فكان لابد من اتخاذ كل ما يمكن من ضروب التحوطات والشـدة ، حتى يشتد ويقوى ، ويسلم مما كان يراد به من الفتنة والأذى • ولقد اقتضت حكمة الحكيم العليم ، أن يقيم الرسول الكريم

عليه السلام ، فى ذلك من الاحكام ما يضمن سلامة الاسلام، فلما أيد الله دينه ورفع منار كلمته ، كان لابد أن تكون هناك أحكام أخرى تناسب ما صار اليه المسلمون من القوة والمنعة، وما أصبح فيه الاسلام من السلامة والأمان ، من ذلك ما رواه البخارى بسنده عن ابن عمر أن رجلا جاءه ، فقال : يا أبا عبد الله ألا تصنع ما ذكر الله فى كتابه « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » (الآية) فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر الله فى كتابه ؟ فقال : يا ابن أخى ! أعير بهذه الآية ولا أقاتل أحب الى من أن أعير بآية « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها » . قال فان الله يقول « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » قال عبد الله بن عمر : قد فعلنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ كان الاسلام ضعيفا ، وكان الرجل يفتن فى دينه اما أن يقتلوه واما أن يوثقوه حتى كثر الاسلام ، فلم تكن فتنة

فانظر كيف كان عبد الله يفسر الفتنة ، ويفرق فى الأحكام بين عهد الاسلام بالقلة والضعف ، وما صار اليه لعهده من العزة والمنعة . ولعل ما ذكرناه هنا هو سر قول الامام النخعى بأن المرتد يستتاب أبدا ولا يقتل . ذلك أن الاسلام على عهده ما كان لتضره ردة المرتدين ، بعد اذ أصبح فى مأمن من أن تؤذيه مكايد المشركين ، ومن يرتدون اليهم من منافقى المسلمين

ولو كان حديث (من بدل دينه فاقتلوه) ، الذى رواه البخارى وغيره على نصه غير مختص بزمان ولا معقود بمقتضيات غير مطردة ، ما وسع النخعى ولا غيره مخالفته

واذ مهدنا أمامك السبيل ، بتلك المقدمات التى أسلفنا ، فاعلم أن الذى نراه ، أن المرتد اما أن يرتد عن دينه ، فلا ينضم الى المدافعين عنه من المسلمين ، ولا يقف منهم موقف المسالم غير الخائن ، كما كان يفعل أولئك الذين نزلت فيهم آيات البقرة والمائدة ، فهذا لا جرم يقتل • وأصرح ما نزل فى ذلك قوله تعالى : «ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ، كلما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها ، فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم ، فخـــذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا »

ومثل هذا القسم من يرتدون ويحاربون ، كما سبق فى حديث النفر من عكل • ولا ريب أن المرتد من أحد هذين القسمين منافق خائن أو محارب ، فلابد أن يقتل من فوره

وكذلك تفعـــل الممالك جميعها فى الوقت الحاضر ، مع أمثال هؤلاء من أفراد شعوبهم ورعاياهم

الزنادقة

ويلحق بهذا النوع الزنادقة ، الذين كانوا على عهد على ابن أبى طالب رضى الله عنه • فقد روى من طريق عبد الله ابن شريك العامرى عن أبيه ، قوله لعلى : ان هنا قوما على باب المسجد يدعون أنك ربهم ، فدعاهم فقال لهم : ويلكم ما تقولون ؟• قالوا : أنت ربنا وخالقنا ورازقنا !• فقال : ويلكم انما أنا عبد مثلكم ، آكل الطعام كما تأكلون وأشرب كما تشربون ، ان أطعت الله أثابنى ان شـــاء ، وان عصيته خشيت أن يعذبنى ، فاتقوا الله وارجعوا • فأبوا ، فلما كان

الغد غدوا عليه ، فجاء قنبر فقال : قد والله رجعوا يقولون ذلك الكلام . فقال : أدخلهم . فقالوا كذلك . فلما كان الثالث ، قال : فان قلتم ذلك لأقتلنكم بأخبث قتلة ، فأبوا الا ذلك فقال : يا قنبر أعني بفعلة معهم . فخد لهم أخدودا بين باب المسجد والقبر ، وقال احفروا وابعدوا في الارض ، وجاء بالحطب فطرحه بالنار في الأخدود ، وقال : انى طارحكم فيها أو ترجعوا . فأبوا أن يرجعوا ، فقذف بهم فيها

وكان يقال لهذه الطائفة سبئية ، نسبة الى كبيرهم عبد الله بن سبأ الذى أظهر الاسلام وابتدع هذه المقالة . وانما ألحقنا هؤلاء الزنادقة بالقسمين قبلهم لانهم ظهروا والاسلام غض حديث العهد بالوجود كثير الاعداء والمحاربين

فلو أن على بن أبى طالب ، ابن عم الرسول وختنه ، وأصل العترة النبوية ، أبقى عليهم ، أو خفف العقوبة عنهم ، لانمحت آيات التوحيد من ظهر الارض ، ولما وجد فى العالم أحد من المسلمين ، ولكان للناس من على بن أبى طالب ، ما كان لليهود من عزير

أما أمثال هذه الفرق اليوم ، وقد اشتد ساعد الاسلام ، وقويت شوكته وتبينت للناس حقائقه وأصوله ، فلا خوف عليه منهم ، ولو كثرت جموعهم وعظم سلطانهم ، اللهم الا اذا أخذوا يفتنون المسلمين عن دينهم بالقتل أو السجن أو التنكيل ، فهنالك يحق على المسلمين مناهضتهم وتقتيلهم أينما ثقفوهم

وأما الذين لم يرتدوا عن تأييد الاسلام ، ولم يخرجوا عليه ، ولم ينضموا الى صفوف أعدائه ، ولم يخونوه فى

شيء ، ولكن أضلتهم بعض الشبهات ، التي لم يستطيعوا لها ردا ، والشـكوك التي لم يقووا على مدافعتها بالحجة والبرهان ، فان سبيلهم فيما نرى ألا يعتبروا كالمرتدين ، ما داموا لم يهتدوا الى الصواب ، ولم يقم من أهـل الذكر والعلم من يبين لهم فيها الرشد من الغي

والله سبحانه وتعالى أحكم وأعدل أن يكلف الناس ما ليس في طاقتهم، أو أن يلزمهم الايمان بما لم يهدهم وجه الصواب فيه . يدرك ذلك من يفقه سر قوله تعـالى : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » فان الرسل قد بعثهم الله لخليقته وكلفهم البلاغ المبين ، اذا فلا تكليف الا حيث البلاغ المبين . فاذا ابتلى العامة بأمثال بعض علماء هـذا العصر الجامدين ، وازدحمت الشكوك والشبهات على صدور النابتين من المسـلمين ، فكيف يؤاخذون اذا ضلت أحلامهم بعد اذ فقدوا أركان الاسلام ، وأساطين علمائه الذين يقتدرون أن يدرأوا الشبهات ، ويهدوا الهائمين في أودية الضلالات

جمود المتصدين للفتوى

أقول ذلك بعد اذ رأيت من الشبان المسلمين ، من كانوا يطرقون أبواب شـيوخ العلماء ، ويغشون مجالس أئمة الاسلام ، لا لغرض سوى اسـتفتائهم في بعض أصـول الاسلام ، والفرار الى معاقل علمهم وهدايتهم ، يتقون بها هجمات جيوش الشكوك والأوهام ، حتى اذا اسـتفتحوا عليهم بكلمة واحـدة في ذلك ، سمعوا من فحشهم وسبهم وتقريعهم ، ما كان يصد أولئك الحائرين عن مجالسهم ،

وقد تنازعتهم ضلالات الحيرة ، ودفعتهم معاملة الشيوخ الى اليأس من بلوغ غايتهم وصلاح عقيدتهم

ونحن على ثقة من أنه لو درس شيوخ المسلمين العلوم الكونية ، وعرفوا أسرار سنة الله فى خليقته ، لما كثرت الملاحدة وفشت المنكرات ، فكيف لنا ــ مع جمود هؤلاء المتصدين للفتيا والارشاد ــ أن نؤاخذ النشء الصغار وغيرهم ، ممن لم يستوعبوا أصول الدين ، ولم يهتدوا الى صواب اليقين ، وهم عاجزون عن مدافعة ما لا قبل لهم به من غارات الشكوك والشبهات

انه قد تعرض لنفس المسلم شبهة لا يستطيع دفعها ، على حين لم يقصر فى التنقيب عن وجه الصواب والحق فيها، فهل هناك دين غير الاسلام ، يحكم بنجاة هذه النفس الحائرة ، ويقول ما قال القرآن : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » . « لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها » . « لا اكراه فى الدين» ؟ . . أفلم يعتبر القرآن التفكر فى ملكوت الله من كبريات العبادات ، يزدلف بها الى الله ؟ أو لم يقل رسوله صلى الله عليه وسلم : « تفكر ساعة خير من قيام ليلة » الى نحو ذلك مما علم المسلمين ، أن من أعظم العبادات قراءة كل ما يعين الانسان على معرفة حكم الله فى خلائقه ، وادراك البدائع من صنعته ، ككتب الطب والتشريح وعلم الحياة وعلم وظائف الاعضاء وعلم النفس وأشباهها ؟ أليس ذلك يخول المسلم ، متى أحسن النية ، أن تكون أكثر أيام تحصيله للعلم ، واعماله للفكر ، عبادة الله تعالى وتعرفا اليه، بما يفهم من بدائع آثاره ، وما يدرك من دقائق صنعته ؟

اذن فالانسان فى نظر القرآن كلما ازداد علما وبحثا ، ازداد عند الله تعالى اقترابا وحظا

مقام القرآن الحكيم ازاء العلوم والمعارف الكونية

كثيرا ما نسمع من خطبائنا العصريين ، ونقرأ فى صحفنا ومجلاتنا الحديثة ، ما يمثل لنا العلم والدين كدولتين فى حرب قائمة دائمة ، لا يستقر لها صلح،ولا تتخللها مهادنة

يلهج بذلك أشباه المحصلين ، وتلاميذ آثار الغربيين ، ممن يطيرون لكل هيعة ، ويفتنون بكل بدعة ، ولو كبلت عقولهم بأغلال التقليد ، واحتبست أفهامهم عن التدبر والتفكير

ليت شعرى أفما كان الأجدر بمن منحوا فطرةالانسان، ورفعوا عن مراتب العجم من الحيوان ، أن يتساموا بعقولهم ويتحاكموا الى بصائرهم فيما يعرض لهم من النظريات ؟ بلى ، ولكنهم أبوا الا أن يجمدوا على الثقة بالمباحث والاقوال الغربية دون سبر لأغوارها ولا تفكر فى مبلغها من الصدق، وما يتبع أكثرهم فى ذلك الا الظن وما تهوى الأنفس. وليت هؤلاء يكتفون بخزى الجمود أمام الحديث فيقفون ازاءه سلبيين صامتين لا يبدون حراكا ولا ينتحلون فهما ، بل نراهم على ضلالهم الكثيف وجهلهم الفاحش يملأون الفضاء بالدعاوى الجوفاء ، ويدعون لأنفسهم علوم الارض والسماء ثم لا ينفكون يقذفون مع ذلك برجوم تهكمهم وسخريتهم قديم المأثورات ويغضون أبصارهم حتى عن آياتها البينات

جهل ذلك الرهط من المتفيهقين تاريخ الأمم الغربية

ومصدر تقلباتهم وتطوراتهم التى تعـــاقبت فيهم ، جهلوا ما انبعثت عنه أحكامهم وأقوالهم فى مختلف المواقف الدينية والسياسية والاجتماعية ، جهلوا جميع ذلك ، كما جهلوا اللباب من أمر دينهم، وبيض الصحائف من تاريخ أسلافهم، وليتهم مع ذلك الجهل المؤكد أنصفوا الطـائفتين ، فسووا بينهما حبا أو كرها ، وانتظموهما فى سلك واحد من المعاملة الحرة ، البريئة من شوائب التحيز ، ولكنا نجدهم اذا عرض لهم شىء ليس بغربى لووا رؤوسهم وثنوا أعطافهم ، وقالوا فى عنجهية شوهاء ونعرة حمقاء : « لا حاجة لنا بما لم يصدر عن أوروبة ، ولا نولى ثقتنا من لم يرد مناهلها ولم يتخرج على أساتذتها »

وأنه لحسب أحـــدهم اذا ما شئت اقنـاعه أن تقول له « بذلك يقول المستر فلان الانجليزى ، أو المسـيو فلان الفرنسى ، أو الهر فلان الالمانى » • فليكفيئك هـذا وحده مشقة التدليل وتوفير البراهين ، وليسلسن لك ذلك مجردا ما شئت من أعنة كل عصى شموس

ولو أن أسارى التقليـــد ممن تصـــدوا لزعامة الحركة الفكرية والنهضة العلميـــة ، كانوا طلقاء العقول ، أحرار التفكير ، لما ابتاعوا من محصول العقول الغربية الا ما أمنوا غشه ، واستوثقوا من نقاء معدنه ، وكمال صلاحه بعد اذ عرضوه على محك الاختبار، وناقشوا أصحابه دقيق الحساب، وميزوا ما فيه من النافع والضـار ، ذلك كيلا يقبلوا قولا ولا يرفضوا رأيا الا وأفئدتهم مطمئنة وأقدامهم ثابتـــة ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة • ولكنها

فيما نرى نوبات عصبية ، وغضبات جاهلية ، ملكت أعنة قلوبهم ، ولعبت بموازين أفهامهم ، فأطلقت السنتهم بالأراجيف ، وسولت لهم كل رأى سخيف

زعموا أنه لا يجوز للدين أن يقف في سبيل الرقى العلمى، وأنه اذا لم يتنح عن سبيله فستكون الهزيمة المنكرة مصيره

كذلكم يقولون أيضا فيما يرجفون انه لابد من فصل الدولة عن الدين وان حرية الفكر الانسانى تستلزم انقلابه ماديا طليقا لا يتقيد بشىء من قيود الأديان

هذه هي الدعائم التى يقيم عليها أولئك الحائرون والاباحيون فى هذه البلاد وأشباهها صروح نهضتهم ومعاقل دعوتهم، ولقد بينا مبلغ ضلال أحلامهم فى تلك المقالات، وخيبة ما بيتوا من الكيد السىء لأهل القرآن ، كما أوضحنا أن هؤلاء المستخفين والطاعنين ، لوكان لهم علم بأصول القرآن ووقوف على ما مكن للعقل والوجدان ، وأرسى من قواعد الحرية الصادقة فى سائر شعب الحياة ، لما زلت لهم قدم فى مزالق التقليد ، ولفقهوا جلال ذلك الكتاب الذى يقول: « ولا تقف ما ليس لك به علم » والذى يقول : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون »

معلوم أن الحكمة فى ظهور الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، انما هى دعوة أممهم الضالة الى اصلاح ما فسد من أمرها ، ومعالجة ما مرض من أخلاقها ، وكبح ما جمح من أهوائها وشهواتها

ولقد جاء أكثر الانبياء والمرسلين برسالات خاصة ، كما جاء بعضهم لمعالجة أمراض معينة فى أقوامهم ، جلها فيما

يحدثنا القصص اجتماعي وخلقي ، ولم يكن فى موسوعات رسالات أكثرهم البحث فى العلوم الكونية والظواهر الطبيعية ، بل ولا النظم والقوانين المدنية

واذا كانت رسالات أكثر الانبياء انقطعت بانقطاعهم ، ودرست معالمها بفنائهم ، حتى لم يبق سبيل الى ضبط ما جاء منها ، ضبط احصاء واستيعاب، فان لنا أن نستأنس بتاريخ رسالة سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام ، فانها مرآة غيرها من سائر الرسالات التى سبقتها

ظهر المسيح عليه السلام فى جزء من المملكة الرومانية ذات القوانين المدنية والدساتير السياسية ، بيد أنه ظهر فى أمة اليهود ، بعد اذ انصرفوا الى عبادة أحبارهم ، وتقطعت فيهم أواصر الأرحام ، وتفسخت الاخلاق عن النفوس ، وتفشت المنكرات ، وأعوز الناس الرحمة والحنان، حتى لم يكد يبقى لهم فى الحياة من مطلب سوى الملاذ البهيمية والمآرب الشهوية

لقد كانت أمة المسيح من اليهود على تلك الحالة يوم جاءهم بالتنفير من زخرف الدنيا ، وتزهيدهم فى باطل متاعها ، وعندما ضرب لهم الأمثال والقصص ، ليقيم الحرب على الشهوات والماديات التى كانت مالكة لأعنة قلوبهم، ومضللة لعقولهم ونفوسهم

ولقد كان من تعاليم أولئك الانبياء والمرسلين ، ومن حذا حذوهم من المصلحين ما جاء عقوبة لأممهم المتفحشة زجرا لهم عن رجس الشهوات التى عكفوا على مرضاتها، وأسلموا مقاليدهم لها ، حتى أنستهم أنفسهم ، وهبطت بهم الى

مراتب سائر الحيوان الأعجم . فللعقوبة والتنكيل كان ما جاءوا به من الحض على الرهبانية ، والترغيب فى الخصاء ، والحث على افناء القوى العقلية والبدنية بالصوم المرهق والتعذيب بالتحرج عن أكثر مطالب الحياة. وما كانت أمثال هذه التعاليم فى سبيل المصلحة العامة العمرانية ، ولا مقصودة لغير من نزلت فيهم من أشرار الناس وعبدة الشهوات ، والا فهى منقصة للنسل ، مذهبة للعمران ، سبيل الى الخراب والزوال . ولذلك يمكن القول بأن رسالات السيد المسيح ، وأكثر من تقدمه من الانبياء والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، كانت فى جوهرها مقصورة على قسم الجهاد النفسى ، والتربية الخلقية ، كما أنها جاءت لطوائف من أقوامهم بعقوبات وزواجر بلغت فى شدتها وفداحتها مثل الذى بلغه هؤلاء من الفساد والفجور

ومع ذلك لم يكد المسيح وكثير غيره يأتون الناس فى الاخلاق بدساتير تبين الخير من الشر ، وتوضح للناس ما يفعلون وما لا يفعلون ، بل لم يكادوا يأتون بشىء كبير فى باب العقائد الالهية . أفلا نذكر كيف استأثر رجال الدين بعد السيد المسيح بالأمر ، وكيف اختصوا أنفسهم بتقرير العقائد وموسوعات الوجدان الانسانى ، وكيف وضعوا (طقوس) العبادات ، وحرموا على الناس حق تفسير كتب العهدين ، كما حرموا عليهم معارضة ما تأمر به الكنيسة ، ولو كان من غير المعقولات ، الى أشباه ذلك مما ضجت الامم النصرانية من هوله ، وثارت للتخلص منه ثوراتها الدموية التاريخية ، سياسية كانت أو دينية

لم نر فيما سجل لنا تاريخ الأديان السماوية ، دينا تجاوز تلك الحدود التي وصفنا ، فتناول شيئا من الشرائع المدنية أو علما بالشئون الكونية سوى دين موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما،وذلك وان يكن فيما يخيل الينا خروجا عن الحدود العادية للرسالات السماوية ، الا انه لمن تدبره لم ينزل به الروح الأمين عبثا ، ولم يرسله الحكيم العليم اعتباطا ولا فضولا ، ولكن كان فيمن بعث اليهم هذان الرسولان الكريمان من الشئون والأطوار ما اقتضى أن يمدا من قبل القوى العزيز بما لابد منه فى مصارعة أفكارهم الضالة ، وهداية عقولهم الهائمة،واصلاح شئونهم التعاملية الفاسدة

كان بنو اسرائيل بمصر متأثرين بالتقاليد والعقائد والعلوم والعبادات المصرية ، فكانوا يعبدون الاوثان والصور ويعلمون من العلوم الكونية ما كان معروفا بين الناس فى هذه الديار ، فلما خرجوا الى سيناء ، ولم يكفهم تاديبا ولا عقابا ما لاقوه فى التيه من صنوف العذاب والشدة ، جاءهم موسى ، بعد مناجاة الطور ، بالالواح يدعوهم فيها الى توحيد الله ، والنهى عن عبادة غيره ، ويحرم عليهم أن يشركوا به شيئا . ولقد كان لابد أن يأتيهم بشىء من العلوم الكونية ، لما كان لهم من الالمام بها والوقوف على تنتف من غثها وسمينها وفاسدها وصحيحها ، فاذا جاءهم بسفر التكوين فانما ذلك لتبديد ما تزاحم فى صدورهم من الضلالات والخرافات المصرية والكريتية التى أبعدتهم عن العلوم بقيوم الارض والسماوات ، وسولت لهم عبادة الصور والأوثان ، وما

فى الفضاء من الثوابت والسيارات · واذا جاءهم موسى مع هذا بشيء من الشرائع والأحكام التعـاملية ، فانما جاءهم بما كان ضروريا لهم فى تدبير وسياسة أرض كنعان ، التى كتب الله لهم · ولو أن موسى عليه السلام عاش حتى ظهر قومه على الكنعانيين ، واندمج فى نطاق ملكهم ما شمله بعد موته حكم يوشع وداود وسليمان ، لكان فى توراته اليوم من الاحكام التعاملية والتعاليم السياسية الشيء الكثير

وهل كان فى استطاعة موسى عليه السلام ، لولا ما أمده الله به من ذلك العلم والشرع ، أن يعيد أقوامه الهائمين فى أودية الجهالة الى حظيرة القدس الربانية ، أو يشرق عـلى نفوسهم الضالة بالانوار الالهية ؟ كذلكم جاءت رســـالة موسى عليه السلام للبلاد · أما محمد عبد الله ورسوله الى الناس كافة ، فان لرسالته التى دامت عشرين عاما ونيفا ، ولدعوته التى ستبقى ما بقى الانســـان فى الارض ، من الشئون والخصائص والمقاصد ما لا يشاكلها فيـه دين ولا تشبهها شريعة

وسيكون بحثنا فى هـــذا المقام خاصا بموقف القرآن ازاء المسائل الكونية والعلوم العقلية · ولا نعنى بهذا أنه جاءنا فى هذه المقاصد بما تجيء به الكتب الفنيــة ، تبويبا وتفصيلا وتدليلا وتعليلا · فان هذا كما هو معلوم ما كان يوما ما من المقاصد الأولى للكتب الالهية ، ولا من أغراض الرسالات السماوية ، وانما يعنينـا فيما يلى مدى ما بين القرآن الكريم والعلوم الكونية من الصـلات ، وهل وقف كتاب الاسلام يوما ما فى سبيل رقى العلم وحرية الفكر ،

كما يتشدق الخراصون ! أم أنه على العكس من ذلك كان محرر العقول الأسيرة ، ومنير البصائر المظلمة ، ومثبت الافكار القلقة ، ومنعش الهمم الخامدة ، ومحرك الافهام الجامدة ؟!٠ كذلك يعنينا أن نصف مقامه فى هذه الاغراض، وأن نأتى على بعض آياته التى لم يفسرها الا الزمان ، ولم يكشف دفائنها سوى ما أحدثته الحركة العقلية الجريئةالتى انهزمت أمامها ظلمات التقليد ، وخفى بها على الأبصار ما كان يعد لدى القدماء علوما صحيحة ، ونظريات ثابتة ، وما كان أكثرها سوى ظنيات اخترعها الخيال والتخمين ، أو أساطير خرافية توارثها الاخلاف عن آبائهم الأولين

جاء القرآن بما جاءت به سائر الرسالات السماوية من التعريف بالخالق ، وتقرير العقائد ، وأمهات الشرائع ، وأساس الأدب والأخلاق ، جاء بجميع ذلك ، قصدا الى هداية العالم الانسانى ، وارشاده الى ما يضمن لهالسعادة والنعيم فى حياته ٠ الا أن القرآن حينما جاء كان الناس فى جميع الارض ، كما هو معلوم للمؤرخين ، نهبا مقسما بين رجال الدين وبين المتغلبين المسيطرين

كذلك كان شأن الناس فى تلك القرون الوسطى يوم هبط وحى الله فى مكة بالقرآن ٠ فاذا جاء القرآن لما سردنا من المقاصد التى نزلت بها الرسالات السماوية الاخرى ، فلقد جاء كذلكم لتحرير العقول البشرية من رق التقليد واخراج الوجدان الانسانى من نطاق الحجر الذى ضربه من حوله رجال الدين ، جاء لانهاض العقل الآدمى واستحثاثه فى سبيل التفكير والنظر ٠ جاء يخفر النفس البشرية

ويسوقها ، لتقرأ صحف الطبيعة ، وتتدبر آيات صنعتها البديعة . بغض القرآن الى الانسان ، كما أسلفنا ، رذيلة التقليد ، ونعى عليه الجمود على ما ورثه آباؤه الأولون ، أو شاءه الاحبار والربانيون ، حتى لقد سمى القرآن هؤلاء أربابا لمقلديهم فى آية : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله »

ولكم عير القرآن الغافلين من معطلى العيون عن الابصار والآذان عن حسن الاستماع والأفئدة عن الفهم والتدبر ، بأنهم كالانعام بل هم أضل

عهد البحث والنظر

جاء القرآن والناس فىالارض بين أمى لا يعلم الكتاب الا ظنونا وأمانى ، ومقلد ملكت فؤاده تعاليم الاحبار والرهابين وأساطير الآباء الأولين،واباحى لا قيدىاسترقته الشهوات والاهواء فهو عدو لكل وازع وخصم لكل مصلح ، ودهرى يقول : ان هى الا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا الا الدهر . ثم قام بجانب هؤلاء أقوام كانوا يرون الخطر كل الخطر فى أن تستنير البصائر ، وتتحرر العقول ، وأن يعرف الناس أن الناس عباد الله كلهم لآدم وآدم من تراب، وأن يعلموا أنه لا تغنى نفس عن نفس شيئا وأن الله أقرب الى الانسان من حبل الوريد ، يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون

جاء القرآن والناس فى كل أرض كما وصفت لكم ، فكان لابد له من الحيلولة بين أغوال المسيطرين المفترسين من

أشباه الناس ، وبين فرائسهم المسكينة الصرعى ، تلكالتى تزعجهم يقظتها ويهولهم انتعاشها ويهدم صروح مطامعهم فيها بعثها ونشورها

ولقد كان ما شاء الحكيم الرحيم بعباده المستضعفين فى الارض ، فان البعثة المحمدية لم تختم الا والناس كافة طلقاء عقلا وضميرا ، أحرار قولا وفعلا

بهذا الجهاد المشكور للقرآن ورسول القرآن بدىء عهد البحث والنظر وولت دولة الجمود، فوطئت بذلك الأكناف للفلسفة الاغريقية وتحصيل علوم الكون العقلية بعد أن ماتت أو كادت • فهى بأهل القرآن عاشت ، وفى أرض القرآن نمت ، وفى ظل القرآن عزت وسادت

سلوا التاريخ هل لقيت من القرآن وأهل القرآن فلسفة هرقليتوس وديمقريط وانكساجوراس ما لقيته هى نفسها فى بلاد الاغريق التى هى مهد الفلسفة ومنبتها ؟•• أم هل لقيت منهما فلسفةسقراط وأفلاطون وارسطووارسترخوس وكليانتوس وبطليموس ما لقيته من الكنيسة الرومانية فلسفة هؤلاء الأساطين ، ثم فلسفة العرب بعدهم من الاضطهاد والمطاردة ؟••وهل اضطهد القرآن وأهل القرآن أمثال برونو وغاليليو ، وأمعنوا فيهم تنكيلا وتحريقا لغير علة سوى أنهم، بعد اذ اعتمدوا على الحس والمعاينةوتسلحوا بالآلات المكبرة والمقربة،استنكروا عتيق الخرافات وأعلنوا الدعوة الى المشهودات وآذنوا بالحرب والقطيعة أصحاب الظنيات ؟

ظهر القرآن أول ما ظهر فى أمة أمية ، لم تألف المباحث

العقلية ، ولم تعرف علوم الكون والمسائل الطبيعية ، فلما جاءهم بما ذكر لهم من اشاراتها أو صريح عباراتها - ولم تتسع لها مداركهم بعد - ذهبوا فى أمرها مذهب التفويض والتسليم وأبوا أن يقفوا ما ليس لهم به علم ، فتقبلوها مؤمنين . وتركوا أمر تأويلها وفهمها الى أهل العلم آخذين بقوله تعالى « ان الظن لا يغنى من الحق شيئا » وقوله « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » وقوله « وفوق كل ذى علم عليم » الى أشباه ذلك من الآيات التى علمهم بها الله أن العقل ليس بعربى ولا عجمى ، وأن العلم ليس بشرقى ولا غربى

وقف السلف الصالح بتعاليم هذه الآيات القرآنية عند حدود التفويض فيما لم يعلموا ، حتى فتحت أبواب بلاد الروم لعقول المؤمنين ، بعد اذ أعدها الاسلام لاغتنام ثروتها العلمية وذخائرها الفلسفية ، فتفجرت لأهل القرآن عيونها النضاخة وتقدمت لأيديهم قطوفها شهية دانية ، فكان ما شاء الله أن يكون لعباده المؤمنين ، سبق فى كل مضمار ، ونقابة خالصة لهم فى سائر شعب الحياة ، وقيادة عامة فى ميادين الحضارة والسياسة والصناعة والزراعة والأدب وفنون الجمال

أجل ! ولكن بقايا الصدر الاول ، المسمى بالسلف ، قلقت نفوسهم يوم رأوا الفلسفة الاغريقية تجد سبيلها بين المؤمنين ، حتى رأوا الكثير فيها خطرا على دين الاسلام ، وحربا على تعاليم القرآن ، كما خفت اذ ذاك أحلام طارت بها الأهواء والزعازع الفكرية الى مسالك متشعبة من الشك والابتداع والالحاد ، حتى اذا ركدت تلك الاعاصير ، وثابت

العقول الى رشدها ، وامتحن الناس موقف القرآن ازاءها ، سكنت النفوس القلقة ، واطمأنت الأفئدة المضطربة ، اذ وجدوا فى آياته المحكمة ما كان جنة لهذا الدين ، ومنارا للمحصلين ، وحجة قائمة على الجامدين ، ورجوما لشياطين المرجفين من الجاحدين . ثم أخذ أمراء المؤمنين وخلفاؤهم وهم القوامون على دين الاسلام الحامون لحماه ، يهتمون بأمر تلك العلوم ، ويترجمون الى العربية ما كان موضوعا منها باللغات الاخرى ، كما أخذوا يتدارسونها ، ويقربون من مجالسهم أساتذتها وفطاحلها ، ولو كانوا من غير المؤمنين . ففى ظل القرآن وصادق دعوته الحارة الى الدرس والبحث والتفكير العميق ، تعانق العلم ودين الاسلام عدة قرون،لم تتخللها وحشة ولم يعوزها صفاء ولا سلام . وما زال ذلك الأمر قائما فى البلادالاسلامية حتى فسدت الملكة العربية، وعجز الناس عن تفهم كتاب الله وادراك تعاليمه ومقاصده بمستقل مداركهم وحر عقولهم . هناك حيل بين العقول والعلوم ، وبخاصة فى بغداد ، فنصب طائفة من الفقهاء أنفسهم للفتيا والتفسير ، حاجرين على المدارك أن تتحرك فى ميادين المعقولات ، وعلى الابصار أن تتقلب فى صحائف الارض والسموات . وما زال شيوخ الدين ، باسم الدين هنالك يستأثرون بكل أمر ، والخلفاء والأمراء الترك من ورائهم يجنون ثمار الجهالة التى تفشت فى أممهم ، ويستغلون العامة من شعبهم ، استغلال بهم الأنعام ، حتى عاد الاسلام غريبا كما بدأ ، وانقلب الناس الى جاهليتهم الاولى . ولقد حذا المسلمون فى هذه النوبة حذو المسيحيين

فى البلاد الغربية ، فاقاموا فى بغداد ما أقامه الأوربيون فى ممالكهم من محاكم التفتيش وأوقدوا نيران العداوة والبغضاء على من خالفوهم فى الرأى والاجتهاد ، ولو كان مرجعهم فى ذلك كتاب الله وسنة رسوله الكريم • فلقد أوصدوا أبواب الاجتهاد أمام العقول وقطعوا للناس فى العقائد والاحكام بأشياء وضعتها أيديهم ، ثم قالوا هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليـلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكذبون

احتكرت هذه الطائفة ــ ولاسيما فى بغداد ــ علم العقائد والشرائع وتأويل الكتاب والسنة، كما احتكروا علم السنن الكونية والمباحث الطبيعية ، وتبعوا فى استبدادهم بالعامة بل بكثير من الخاصة سنن رجال الكنيسة ، شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، فحرموا وحللوا وفسقوا وكفروا ، وحذروا النـــاس عواقب مخالفتهم فيما ينهون ويأمرون ، فأقاموا بذلك لأنفسهم سلطانا عـلى النفوس والسرائر والعقول ، واتخذوا من مقاماتهم الدينية للترك المتغلبين والأمراء الجاهلين آلات يبلغونهم بها مآربهم السياسية ومطـامعهم المادية • فلأغراض سياسية صبغت بألوان دينية كان أكثر ما شهدته بغداد من المصادمات والاضطهادات الدموية التى قامت باسم الدين ، وما هى من الدين فى شىء ولكنها شهوات المتغلبين ومطامع الجبارين ، قضت بأن يعطل فى بغداد القرآن، ويطفأ بها نوره الساطع الذى جعلها فى عدة قرون كعبة المحصلين ، ومثابة المستنيرين ، ومهاد توأمى العلم والدين

ولما جاء المغول بغاراتهم الساحقة الماحقة ، كتب الفوز

والغلب للجهل وتم النصر للسيف على العقل ، فهام الناس في أودية الضلال ، ورجعت العقول الى جاهليتها الأولى ، انقطاعا عن التحصيل ، وتقيدا بالتقليد ، وأخذا بالخرافات والأضاليل

بهذه النظرة العامة التاريخية لموقف القرآن ازاء العلوم العقلية والكونية ، يتبين أن حياة تلك العلوم وذيوعها فى سائر البلاد التى شملها ظل القـرآن كانا معقودين بمبلغ وقوف النـــاس على معانى هـذا الكتاب ، ومدى ادراكهم لأسراره وأخـــذهم بتعاليمه ٠ ولعل القارىء لاحظ كيف ابتدأ تقلص ظلالها عن الربوع الاسلامية ، ومتى انطمست معالمها فى الحواضر التى بها كانت زاهية زاهرة ، تضرب اليها آباط الابل من كل صوب ، ويقصدها طلاب المدنيـة والعرفان من أطراف الأرض

ولقد يدرك المؤرخ البصير أن أرواح الأمم وعقلياتها ، يعدى بعضها بعضا،ولاسيما ما كان منها خبيثا ، فالشعوب الاسلامية فى الشرق ، عندما غشت أبصارها ظلمات الجهالة فعل فيها رجال الدين ما فعل فى الغرب رجال الكنيســـة بالمسيحيين ، وكم من مرة اتحدت أو تقاربت فيها الاوقات التى كانت تقام فيها محاكم التفتيش فى أواســط أوربا ، والاضطهادات المذهبية فى بغداد وما حولها

ومالى لا أتحدث بما فعل الكاثوليك بأمر شارل التاسع ملك فرنسا عام ١٥٧٢ م بالبروتستانت من المذابح التى أحصيت ضحاياها ، فبلغت سبعين ألفا عدا ، مقارنا ذلك بالجناية الكبرى ، التى جناها السلطان سليم عام ١٥١٣ م

فى بلاد العجم ، يوم أحصى الشيعة فى تلك البقاع بطريقة سرية لم يشعر بها أحد ، حتى اذا عرفت مساكنهم واشخاصهم ، أمر السلطان فأبيدوا فجأة عن آخرهم ، وكانوا نحو اربعين الفا ، ولم يكن لذلك من سبب ، سوى القصد الى اثارة نفس عميد الشيعة الشاه اسماعيل ملك العجم ، واستفزازه للمحاربة ، طمعا فى ملكه ، وقصدا الى ابادة دولته . فالسبب فى هذا المثل كما ترون سياسى بحت ، ظهر للناس فى شكل دينى . ولهذا المبحث من الاحداث والشواهد، ما يخرجنا سرده عما قطعناه على أنفسنا هنا من الايجاز والاجتزاء بالعجالات والأمثال

كذلك كان شأن القرآن ازاء العلوم ، وقد كان من موسوعاتها العلوم العقلية من الرياضيات والطبيعيات وما وراء الطبيعة ، فهو الذى قام بالدعوة اليها ، والترغيب فى البحث عن دقائقها وأسرارها ، وهو الذى ببركته وجد بين المؤمنين آلاف من أمثال : الكندى، ومحمد بن موسى الخوارزمى، ويحيى بن أبى منصور ، والعباس بن سعيد الجوهرى ، وأحمد بن كثير الفرغانى ، وجعفر بن محمد البلخى، ونصير الدين الطوسى ، وثابت بن قرة ، وعمر بن الخيام ، وابن سينا ، وأبى نصر الفارابى ، وابن رشيد ، والحسن بن الهيثم، وأشباه هؤلاء من فطاحل العلوم الرياضية والطبيعية والأثقال والموسيقى وغيرها

القرآن والعلوم الحديثة

لم يبق علينا اذن الا البحث فى موقف القرآن الكريم ، ازاء ما يسمى الآن بالعلوم (Sciences) ، وهل فى طبيعة

دراستها بالأساليب الحديثة ، ما يجعل بينها وبين القرآن وتعاليمه سدا لا يتعانقان معه ، وقتالا لا يرجوان سلاما بعده ؟ أجل ! بيد أنه لابد لنا قبل الدخول فى تفاصيل ذلك البحث أن نعرف لكم معنى كلمة (العلم) المألوف للعرف الحاضر فى الغرب وكذا فى الشرق الذى يسير على أثر الغرب فى كل شيء ، فان لكل زمان اصطلاحه وعرفه، ولكل عرف حدوده وحكمه . ولنعتمد فيما نقدم لكم من ذلك على أقوال أساطين رجال الفلسفة الحديثة من أهل أوربا ، فانهم محدثوا هذه الفلسفة ، ومبتدعو اصطلاحاتها ، وواضعو تعاريفها ، فنقول :

(١) يقول هكسلى : « العلم » فيما أعتقد ، ليس سوى الذوق الانسانى بعد تربيته وتنظيمه ، ويطلب هذا العلم حقائق الكائنات الطبيعية بواسطة الحواس ، مع الاستعانة بجميع ما عرف لهذا العهد من أنواع الآلات العجيبة المدهشة ، مثل المناظير المكبرة (Microscope) والمناظير المقربة (Telescope) ، وهل أقيمت اكتشافات كبلر ونيوتون الا على تلك القواعد الثابتة ، قواعد الشهود بهذه المناظير ؟ »

(٢) ويقول الاستاذ بلفور فى خطبة له :

ـ يتوقف «العلم» فى تحصيله والتثبت منه على المقاييس فكل ما لا يقبل القياس من الاشياء ، فهو خارج أو يكاد يكون خارجا عن حدوده الطبيعية، ومعلوم أن الحياة والجمال والسرور ليست مما يقاس ، فهى اذن لا تكون من موضوعات « العلم »

(٣) ويقول الاستاذ وندل : « العلم ـ سواء استعان بالآلات أم لم يستعن ـ عماده ما يلاحظه الانسان ويحسه

من الكائنات ، وما تهديه اليه فى المعامل الكيميائية والمعامل الطبيعيـــة التجاريب والآلات ، التى تمكنـه من انتزاع غوامض أسرار الطبيعة من مكامنها العميقة ، مع بلوغها من الدقة والضآلة ، ما يكاد يحجبها عن أبصار الرائين

واذا أردنا أن نبحث فى باطن النظام الآلى للطبيعة أو فى خارجه ، أو قصدنا معرفة ما انبعث عنه هذا النظام ، وكيف كان وما مصيره ، أو حاولنـا أن ندرك كنه هـــذا الكون ، ومبلغ شعورنا به ، ولم وجد ولم خلقنا نحن هنا ، اذا أردنا ذلك ، فان العلم الحديث ليس لديه جـــواب عن شىء منه ، اذ لا دخل لشىء من ذلك فى الحـــدود المصطلح عليها للعلم ، واذا كان لا علاقة للعلم الحـــديث بشىء من تلك المباحث،ولا جواب لديه عن أمثال ما قدمنا من الأمثلة، فليس بالطبع لأحد ممن يتكلمون باســـم العلم أن يدعى أن « العلم » أقام البرهان على عدم وجود الله ، أو أنه ليس هناك أرواح ، أو أن هنالك أو ليس هنالك بعد هذه الحياة الدنيا بعث ولا نشور ، ولا جنة ولا نار الخ ... »

مما اقتبسناه هنا من أقوال أساطين التجـديد الغربيين فى تعريف كلمة « العلم » وتحديد مداها وموسوعاتها يتبين أن من الجهل الفاضح واللغط الطائش أن يتعـــرض باسم هـــذه الكلمة ــ ورقعتها من الضيق عـــلى ما رأيتم ــ الى المباحث العقلية البحت ، وبخاصة ما وراء الطبيعة منها،فان « العلم » بالمعنى الذى وصفه وعرفه واضعوه كما أسـلفنا لا يعـــرض لشىء من هذه المباحث بنفى أو اثبـــات ، ولا يتناولها بامتحان ولا مناقشة ، وكيف وهو لا يصـــل الى

المحسوسات ولا يعرف موضوعا غير الماديات ، ولا منطقا سوى المعامل والآلات

□

ولقد وقفت الكنيسة فى بدء بناء « العلم » على تلك القواعد الجديدة وقفة المحارب العنيد أيام حكمت بالكفر شعبة الالهيات فى جامعة توبنجن بالمانيا على الفيلسوف كبلر سنة ١٥٩٦ ، وأصدرت محكمة التفتيش قرارها المشهور الذى خلاصته :

(١) أن النظرية القائلة بأن الشمس مركز الدنيا وأنها لا تتحرك من مكانها هذيان . وأنها كذلك هرطقة لأنها بلا ريب مناقضة للكتاب المقدس

(٢) أن النظرية القائلة بأن الارض ليست مركز الدنيا، وأنها غير قارة ، ولكنها متحركة ومتنقلة ، هذه النظرية مساوية فلسفيا لسابقتها فى هذيانهاوخطئها ، ومن الوجهة الدينية تعتبر على أقل فرض عقيدة خاطئة

ولم تهبط سورة الحركةالعدائية للعلم وأبحاثهالجديدة الا فى نحو الثلث الاول من القرن السابع عشر بعد اذ أخذ رجال الدين يتبينون خطاهم فى فهم عبارة «العلم» ويفقهون ألا علاقة لها بغير الماديات والآليات من الكائنات أصلا ، فهنا نرى القسيسين الكاثوليكيين : بليالدو وغسيندى ، يتوليان علنا فى الاعوام (١٦٣٩ ـ ١٦٤٥) الدفاع عن نظرية كوبرنيك ، فلا يصابان بأذى ، ولا يتهمان بهرطقة

بعد الذى قدمنا فى هذا المقام من البيان ، نود أن نقرر

بكل توكيـــد أن موقف القرآن الكريم تجاه « العلم » فى العصر الحـديث ، هو عين موقفه ازاء « العلم » فى القرون الوسطى الى عهد التجـديد الغربى ، فهو كما كان قبـــلا لا يفتأ يدعو العقل الى التفكير ، والأبصار الى الاعتبـار ، والآذان الى الاســتماع ، ثم هو مع ذلك لا ينفك يستدرج الناس الى التحسس من أسرار الكائنـــات ، ويحفزهم الى الكشف عن غوامضها ، والتنقيب عن دقائقها ، فهم بحكم تعاليمه الخالدة يفقهون أنهم لم يؤتوا من العلم الا قليـــلا ، وأن الله يخلق ما لا يعلمون، وأن الكائنات خلقت مما يعلمون ومما لا يعلمون ، وأنه ليس للعلم صورة خاصة ولا حدود حاصرة • كذلكم يجد المؤمنون أنفسهم بحكم آياته الحكيمة منهيين عن التقليد فى عقائدهم ، وآتباع الظن فى أحكامهم، والميل مع الأهواء فى تصرفاتهم

على أنهم مع هـــذا كله يجدون فى كثير من آى القرآن ما يرشدهم الى مواطن التفكير والبحث، ويعرفهم ما يتطلبون الوصول اليه من أسرار العالم ودقائق حقائقه • واذن كان استقصاء ما جاء من ناحيـــة النظريات الحديثة فى القرآن الكريم ، وبيان القول فيه كما ينبغى مما لا يتسع له هـــذا المقـــام ، فاننا نكتفى هنا بالاتيان على طوائف منها اجمالا لا تفصيل له ، وايجازا نجتزىء بالاشارة فيه • ففى هذه الحدود التى رسمنا لأنفسنا نقتبس من الآيات الـكريمة ما له علاقة وتناسب بأمهات تلك النظريات الفلسفية • وقبل انجاز ما وعدناكم هنا نرى أن نجمل لكم ما سبق تفصيله فنقول :

(١) ليست مهمةالقرآن كسائر الكتب السماوية البحث فى الشئون الكونية والمسائل العلميـة والفنية على النحو المألوف فى الكتب الخاصة الموضوعة فيها

(٢) لما جاء القرآن الكريم كان فى جزيرة العـرب من العقائد الفاسدة والعلم الخاطىء بالكونيات أضعاف أضعاف ما كان منها لدى بنى اسرائيل عندما أخرجهم موسى عليه السلام من مصر،فكان من الحكمة الالهية أن يتنزل على محمد فى سبيل تصحيح تلك العقائد والمعلومات أضعاف ما تنزل على موسى فى سفر التكوين ٠ والحكمة البالغة فى ذلك أن الدعوة الى توحيد الخالق ، وتقريرالحق من العقائد ، وقبول ما يلى ذلك من الشرائع والأخلاق ما كانت لتجد سـبيلها الى قلوب عرفتللاجرامالعلوية وأصلها وألوهيتها وتزاوجها وما كان من أنسـالها فى تكوين هذه الكائنات ونظامهـا ما قررته العقلية القديمة فى بلاد مصر والاغريق ، وما بثته فى جزيرة العرب وما حولها أساطير الاشوريين والبابليين والكلدانيين ٠ اذن كان لزاما أن يسترعى القرآن الناس الى وجه الخطأ فى عقائدهم ، وأن يشـككهم فى الباطل الذى اتبعوه ، لانهم وجدوا عليـه آباءهم ، وأن يطلقهم بذلك من الحجر الذى أشقاهم والحقهم بالانعام من الحيوان

(٣) كانت اذن مهمة القرآن الحكيم ، التى أرادها لتمهيد السبيل الى التعريف بالخالق جل شأنه ، أن يبين للعقول بضرب الامثـال لم تفكر وفيم تفكر وكيف تفكر ؟ فهو فى جهاده هـذا كان يخطط أرض العلم لتقيم العقول البشرية عليها صروحه الشامخة المتينة ، ويرسم الخطوط الاساسية

للصور كي يملأها الرسام بما يلزم لها من الالوان والظلال ومعالم الجمال

(٤) لم يقف القرآن الكريم عند هذا الحد فيما ضرب لنا من الامثال في بيان بعض غوامض الحقائق الكونية ، بل جاء في ذلك بحقائق أمر الأميين وغير المحصلين بالتسليم بهـا والتفويض فيها ، كما أمر العقول الناضجة المقتدرة بطلابها والوقوف على دقائقها والعلم بوجوب الصـواب فيها . ثم نصح للفريقين أن يعترفا بعجز عقولهما ، وألا يقطعا في شيء فيما لا تبلغه أبحاثهم وسعيهم ، بل يتهمون أنفسهم بالعجز والقصور ، ويسألون أهل الذكر فيما لا يعلمون أو يكلون أمر مالا يدركون الى من يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير

(٥) ان المسيحيين حينما ثاروا في وجه العلم ونظـام الحكم ثوراتهم التجديدية في أوربا لم يكونوا ليشبهوا في شيء من مواقفهم تلك أحدا من الشعوب الاسـلامية ، فانما كان مبعث حركتهم العنيفة ومصـدر ثورتهم الدموية ، أن رجال الكنيسة باسم الدين حجروا على العقول والوجدان ، وقرروا للكنيسة فلسفة حرموا على الناس حتى استيضاح ما غمض عليهم منها ، ثم قرروا تكفير من يقول بغيرها ، ولو اعتمد في رأيه على الحس والمعاينـة . حتى لقد كان منهم ميلانشتون وكيرمونيني اللذان رفضا أن ينظرا الى السماء بتلسكوب (الآلة المقربة)

وقد روى عن غاليليو أن من تلاميـذ المذهب الأرسطي من كانوا ينكرون وجود أجسام علوية مرئية بالفعل، وانهم كانوا يعتبرون فلسفة أرسطو كتلة واحدة لا تقبل التفكيك،

اذا نقض منها حجر انهار سائر بنيانها على أثره ، فكان ذلك سبب مغالاتهم فى التمسك بها والحرص عليها مجتمعة

والآن ، وقد فرغنا من هذه المقدمات التمهيدية ، ننجز ما سبق لنا الوعد به ، فنقول :

(أ) تكون جميع أصـــول الكائنات من زوجـين اثنين وبلسان العلم الحديث من : الكترون ، وبروتون

وفى القرآن : «ومن كل شىء خلقنا زوجين اثنين» فما من شىء فى الوجود الا منه الذكر والأنثى سواء فى ذلك النبات والحيوان والجماد وغيرها مما لا نعلم • وجاء فى بيان اجمال ذلك قوله تعالى : «سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » وفى عبـارة « ومما لا يعلمون » من المعانى ما يسكن اليه عقل الانسان فى كل زمان ، وتطابقه كما رأينا أحدث نظرية فى أصول الأكوان

(ب) تتولد الحياة من الماء

وفى القرآن : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » فهـــذه الآية تطابق العلم الحديث فى هذا الموضوع • ولقد وقفت عقول قدماء المفسرين ازاء هذه الآية حائرة قلقة ، فلم تدرك منها ذلك المعنى على ظهوره ووضوحه • ولذلك وقع لهم فى تأويلها خلط كثير نضرب عنه صفحا هنا

(ح) تعدد الأرضين

لم يذكر القدماء شيئا فى أمر تعدد الأرضين ســـوى ما نقلة ابن ســـينا عن قدماء حكماء الفرس من أن هنالك أراضى كثيرة غير أرضنا ، وما زال الرأى السائد بين سائر الحكماء والفلاســفة يقول بعدم تعددها ، حتى جاء غاليليو

المتوفى سنة ١٦٤٢ بمناظيره المكبرة والمقربة ، وكذلك من جاءوا بعده فأثبتوا بمشاهدتهم العينية الصادقة أن السيارات جميعها أراض كأرضنا ، وقد يكون بها ما بأرضنا من الجبال والوهاد والماء والهواء والخلائق والعمران . ولم يعتمدوا فى هذا التجويز الا على الحدس والظن ، فان مناظيرهم لم تثبت لهم ذلك بعد

أما القرآن فقد صرح بتعدد الأرضين فى آية (الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن) ففى تفسير أبى السعود (من مفسرى القرن التاسع للهجرة) أن الجمهور على أنها سبع أرضين بعضها فوق بعض . وفى تفسير النيسابورى أنها سبع أرضين ما بين كل واحدة منها الى الاخرى مسير خمسمائة عام (١) وفى كل أرض منها خلق .. الى أن قال : وهم يشاهدون السماء من جانب أرضهم ويشهدون الضياء منها ، الخ . ومن أصرح الآيات فى أن السيارات أراض ماهولة آية الشورى : « ومن آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة » اذ المراد بالسموات هنا السيارات على ما يأتى لنا من التأويل . ومن الآيات البينة فى هذا الموضوع قوله تعالى : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض وما فيهن ، بل آتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون »

---

(١) مسالة تقدير المسافات التى بين السيارات مثلا بمسير خمسمائة عام يفسرها الشهرستاني بالدابة تسير فرسخا اسلاميا فى كل ساعة على ماهو معروف ومصطلح عليه فى سائر الكتب الاسلامية مما يبلغ مجموعه نحو ١٦ مليون ميل تقريبا وهو قريب جدا من تقديرات المتأخرين للمسافات الفاصلة بين السيارات كما يقول ذلك الاستاذ فى كتابه المسمى « الهيئة والاسلام » صفحة ٩٠ جزء اول

ومن قصرت عقولهم من القدماء استبعدوا وجود الحيوان فى الاجرام السماوية ، ولكن نفى الزمخشرى والبيضاوى وغيرهما استبعاد أن يخلق الله فيها صنوفا من الحيوان يمشون فيها مشى الانسان على الارض ، فالله خلق كما قالوا ما نعلم وما لا نعلم

(د) السيارات هى التى تدور فى مدارات وهمية ، وليست كما يقول قدماء الفلاسفة ثابتة فى أفلاك دائرة بها ، وهذه الأفلاك لا تقبل الخرق والالتئام ، الى آخر ما جاء للقدماء فى وصفها والتعريف بها ، أما القرآن الكريم فيطابق الفلسفة الجديدة فى آية « كل فى فلك يسبحون » وآية « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق »

(هـ) الشمس جسم مشتعل تبث النور والنار من ذاتها وترسلهما الى سياراتها المرتبطة بها وان اقتضى ذلك اضاعة اضعاف أضعاف ما يحتاجه كل سيار من أشعتها . والأجرام الكونية جميعها حادثة بالذات والزمان ، وقابلة للفساد والفناء . ومن الثابت بالحساب أن الشمس تفقد من مادتها فى الثانية على أقل تقدير اربعة ملايين طن . ولا ينبغى أن يزعج هذا عشاق الحياة الدنيا ، فان الشمس على هذا الحساب تحتاج فى فقدها جزءا من مائة جزء من حجمها الى مائة مليون سنة وخمسين ألف سنة . على أنها بعد أن تصل الى هذه الحالة نجدها لا تزال ترسل من نورها وحرارتها ما يجعل الحياة فى أكثر أجزاء هذه الارض صالحة طيبة

وفى القرآن فى ذلك : «وجعل الشمس سراجا» «وجعلنا سراجا وهاجا» ، قال مقاتل فى تفسير الوهج : مجمع النور

والحر ، وفى القاموس : وهجت النار اتقدت

ومن الآيات « اذا الشمس كورت » اى ذهب حرها ونورها،وآية « اذا السماء انفطرت·واذا الكواكب انتثرت» «فاذا النجوم طمست·واذا السماء فرجت·واذا الجبال نسفت» الى أمثال هذه من آيات القرآن الكريم · وهنا يجمل أن اذكر بالخير أحد مجتهدى الشيعة هبة الله المشهور بالشهرستانى ، وهو من علماء عصرنا فقد وضع كتابا فيما بين الهيئة الحديثة والاسلام من الاتصال ، فاتى على بعض مباحث قيمة مفيدة يحسن أن أقتبس منها ما جاء له فى بيان معنى السماء فى القرآن اذ يقول : —

(١) اذا وردت السماء والارض معا ومفردتين فى آية ، كان الظاهر من الأرض أرضنا ومن السماء ما علاها من الهواء والأجرام

(٢) واذا ورد لفظ الأرض مفردا ومعه السماء مجموعة، كان الظاهر من الأرض ارضنا ومن السموات الكرات والأجرام مطلقا

(٣) واذا ورد لفظ الأرضين مع السماوات مجموعتين ، كان الظاهر من الأراضى السماوات والكرات البخارية المحيطة بها

▭

هذا وتطلق اللغة كلمة السماء على كل ما يعلو الارض · قال القزوينى : كل ما فوق الأرض فهو سماء ، وقال الطبرسى فى مجمع البيان ، كل ما علاك وأظلك فهو سماء

وجملة القول فيما قصده القرآن من كلمة السماء ان السماء :

(١) نفس الجو كآية « وجعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا »

(٢) الأجرام السماوية والسيارات كما فى حديث « ان فى السماء آدم كآدمكم ونوحا كنوحكم » وكما فى آية « ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة »

(٣) جسم عظيم مكور محيط بالأرض ، ولكن اختلف الناس فى فهم كنهه والمفهوم من بعض الأحاديث أنها كرة بخارية غازية ، وهذه مع كرة الهواء التى فى جوفها تتحركان مصاحبتين للأرض بجميع حركاتها ، وفيها يقول الأستاذ فانديك (جزء ثالث ـ النقش فى الحجر) :

«انا عائشون فى قعر أقيانوس سيال معدل عمقه على الأقل مائة مثل لعمق أوقيانوس الماء الغامر للكرة الارضية »• وفى هذا المعنى جاءت آية « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » ففى مروج الذهب وابن ميثم فى شرحه على نهج البلاغة أن المفسرين اتفقوا على أن الدخان الذى تكونت منه السماء كان عن تنفس الماء وتبخره ، وفى كليات أبى البقاء : كل دخان يسطع من ماء حار فهو بخار وكذلك الندى • وبهذا المعنى أتت الآيات الكريمة : (١) ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر (٢) يوم تشقق السماء بالغمام و (٣) وأنزلنا من السماء ماء و (٤) أولم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى (وذلك فى رأى

بعض المفسرين) وكذلك جاء قول الشاعر :

اذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وان كانوا غضابا

ولقد رويت بهـذا المعنى أحاديث كثيرة تختلف درجات صحتها،وفيها تسمى تلك الطبقة البخارية بالبحر المكفوف، أى الذى لا يهبط ولا يسقط لأنه فى حالة بخارية

▭

فائدة الجبـال في الارض وحكمتها انها مقام الانسـان وغيره من الكائنات الحية أو شرط بقائها وحياتها ، اذ هى الجزء الجامد المرتفع الراسى الثـابت المتماسك الأجـزاء والعناصر الصلبة . ولولا هذه الخصائص والصفات لمادت الارض ببحارها ولاضـطربت بأمواجها كما يشـاهد فى القسم المائى منها وهنالك لا يكون للانسان بها مستقر ولا للعمران فيها سبب ولا مكان

ومن الآيات الواردة فى ذلك المعنى : (١) « وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بكم» و (٢) «وجعلنا الجبال أوتادا» و (٣) « وألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم »

وذلك أن الجبال لصلابتها وتماسك عناصرها وارتفاعها عن سطح البحار تكون للانسان مقاما حصينا لا يهدده طغيان الأبحر ولا يجترفه مضطرب الأمواج . ثم انهـا لشهوقها ومختلف درجات ارتفاعها لها من الفوائد العظمى والشرائط الجوهرية الضرورية للحياة والعمران والحضارة ما لا يخفى على المحصلين . ومن الخطأ أن تتخيل الجبال كالأوتاد تغرز فى الأرض أو الحائط لتربط بها الدواب خشية فرارها أو

الخيمة لبنائها واقامتها على أعوادها فان هذا المعنى ليس مما يخطر للعقل السليم • وما لنا نأخذ بهذا التأويل السقيم ، ولنا فى معانى الوتد لغة ما لا يلجئنا اليه ؟

لقد سمى العرب الهنية الناشزة فى مقدم الاذن وتدا ، فيقال « ما أملح وتدى أذنه » كما استعملوا أوتاد البلاد لرؤسائها الظاهرين فيها وأوتاد الفم لأسنانه المثبتة فى فكيه • اذن لماذا يقذف بنا الشطط فى التأويل حتى نحمل كتاب الله العربى من المعانى ما هو بعيد عن نظمه البديع ومراميه الطبيعية ؟ أفلا يعلم أولئك أن الجبال هى المثبتة فى الارض كما يثبت وتد الدابة أو الخيمة فى الأرض والحائط ، وأن الأمر بهذا ينعكس عليهم اذ تكون الأرض هى الوتد الذى تثبت به الجبال لا العكس

ثم ماذا عسى أن يكون مبلغ تأثير الجبال فى الأرض من ناحية حفظ توازنها ووقايتها ما يحل بها من الميدان والاضطراب كما يقول أولئك الواهمون • اننا نعلم أن الله سبحانه وتعالى رفع السموات والأرض بما قدر لها من القوانين الكونية وما أقام بينها من التجاذب ، فهو الرافع لها ، كما فى القرآن ، بغير عمد مرئية للابصار ، ولكن جعلها سابحة فى الفضاء محفوظة من السقوط والاضطراب والميدان ، فهى تسبح بقدر فى مدارها سبحا لا يعتوره نشوز ولا نكوب ما دامت تلك النواميس قائمة معقودة بمشيئة مبدع الكائنات وفاطر الأرض والسموات « ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده »

على أن نظرة واحدة الى نسبة ارتفاع أعظم الجبال الى قطر الأرض تدلك على أن الجبال فى الأرض ما هى الا كالهانات الناشزة فى سـطح جسم الانسان لا تقيم بضآلتها وزنا لاعتداله ولا توازنه ، فان رفعة تلك الجبال الشـاهقة فى كرة الأرض على قلة عددها تتراوح بين خمسـة آلاف من الأمتار وتسعة آلاف متر تقريبا وبعبارة أخرى تتراوح بين جزء واحـد وبين جزء ونصف جزء من ثلاثة آلاف جـزء متساوية يقسم اليها قطر الأرض تقريبا (١)

ومن هنا يتجلى مبلغ ضآلة تلك الجبال فى الارض ٠ أما الحكمة فى وجودها فقد سبق الكلام فيها،واجماله أن الغرض هو اعدادها لعالم الحياة والعمران فى كرة الارض واستخدامها لتخفيف البلاء والجهد عن سكانها من الأحياء واقامة معالم الزينة والجمال فى أقطارها وربوعها

يشير الى ذلك قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج »

☐

وبعد فقد آن لنا أن نكتفى بما قدمنا لـكم من العجالات والأمثال فان فى استقصاء هذه المباحث ما يحتاج الى ضخام المطولات ٠ فحسبنا هنا ما تيسر لنا منها والله المسئول أن يوفقنا الى اكمال هذه الموضوعات وايفائها حقها من الشرح والبيان خدمة للدين وهداية للمستهدين من المؤمنين

---

(١) قطر الأرض يساوى ٣٠٠٠ فرسخ

الآيات الواردة حول الموضوعات السابقة

(١) « امن خلق السماوات والأرض وانزل من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها اله مع الله بل هم قوم يعدلون . امن جعل الارض قرارا وجعل خلالها انهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا اله مع الله بل اكثرهم لا يعلمون »

(٢) « قل ارايتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله اروني ماذا خلقوا من الأرض ، ام لهم شرك فى السماوات ، ام آتيناهم كتابا فهم على بينة منه ، بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الا غرورا »

(٣) « اله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين »

(٤) «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق »

(٥) « انها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »

(٦) « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون »

(٧) « ومنهم من يستمعون اليك افانت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ، ومنهم من ينظر اليك افانت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون »

(٨) « وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وانهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد

ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »

(٩) « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا باسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة »

(١٠) « واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله امرنا بها قل ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون »

(١١) « لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »

(١٢) « ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين . او تقولوا انما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم افتهلكنا بما فعل المبطلون »

(١٣) « ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب الا امانى وان هم الا يظنون ، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا »

(١٤) « ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير »

(١٥) « ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون »

(١٦) « قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء »

(١٧) « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر اولو الالباب »

(١٨) « هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ »

(١٩) « قال الذين اوتوا العلم ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين »

(٢٠) « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون »

(٢١) « ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا »

(٢٢) « يا ابت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى اهدك صراطا سويا »

(٢٣) « وقل رب زدنى علما »

(٢٤) « سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين »

(٢٥) « وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما »

(٢٦) «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون»

(٢٧) « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم »

(٢٨) « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير »

(٢٩) « تدعوننى لاكفر بالله واشرك به ما ليس لى به علم »

(٣٠) « قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون . قال أولو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم »

(٣١) « ولقد اخترناهم على علم على العالمين »

(٣٢) « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون »

(٣٣) « «وابلغكم ما ارسلت به ولكنى اراكم قوما تجهلون»

(٣٤) « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم »

(٣٥) « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد »

(٣٦) « فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم »

(٣٧) « فذكر انما انت مذكر ، لست عليهم بمسيطر »

(٣٨) « فانما على رسولنا البلاغ المبين »

(٣٩) « افنجعل المسلمين كالمجرمين ، ما لكم كيف تحكمون ؟ »

وهنالك كثير من آيات القرآن الكريم مختومة بمثل العبارات الآتية « قليلا ما تذكرون » ، « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » ، « ايتونى بكتاب من قبل هذا أو اثارة من علم ان كنتم صادقين » ، « ان فى ذلك لآيات للعالمين » ، « ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » الى أشباه ذلك مما تجدونه فى ثنايا الكتاب العزيز

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على رسوله المبعوث بالآيات المنجيات

وكلاء مجلات دار الهلال

بيروت ولبنان : السيد خليل طعمه ـ السور ـ العسيلى ·
المدخل الشمالى ص · ب ٥٤٣ بيروت

حماه : السيد سعيد نجار

اللاذقية : السيد نخله سكاف

حمص : السيد عبد السلام السباعى ـ ص·ب٤٩

مكة المكرمة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص·ب٩٧

البحرين والخليج الفارسى : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد ـ البحرين

البرازيل : Snr. Jorge Suleiman Yazigi.
Rua Varnhagem 30.
Caixa Postal 3766.
Sao Paulo. Brasil

ساحل الذهب : The Queensway Stores. P.O. Box 400.
Accra. Gold Coast. B.W.A.

نيجريا : Mr. M.S. Mansour. 110. Victoria Street.
P.O. Box 652. Lagos. Nigeria. W.C.A.

انجلترا : مكتب توزيع المطبوعات العربية

Arabic Publications Distribution Bureau
15 Queensthorpe Road. London. S.E. 26.

هذا الكتاب

يعد هذا الكتاب « الاسلام دين الفطرة والحرية » اثرا نفيسا من آثار العالم الجليل والزعيم الوطني النابغة المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش . فقد طوى حياته فى الجهاد الوطنى ، لتحرير مصر من ربقة الاستعمار ، والسعى لحريتها وكرامتها واستقلالها التام ، واحتمل اعظم التضحيات . ولكنه الى جانب جهاده الوطنى لم ينس واجبه العلمي والدينى ، فكتب وحاضر كثيرا . . . وكان من ذلك تاليفه لهذا الكتاب ، الذى نقدمه اليوم لقراء هذه السلسلة ، وهو يتناول عدة موضوعات هامة عن الاسلام والقرآن ، كالفطرة والتوحيد ، والنبوة والغرض الفطرى منها ، واثر القرآن فى تحرير الفكر البشرى ، وموقف القرآن من العلوم الكونية

وقد كتبه المؤلف بأسلوب عصرى ناضج ، وبعبارة سلسة فصيحة ـ فقد كان رحمه الله من كبار الكتاب وقادة الفكر وعالما ممتازا من اعلام الوطنية والوطن ـ ويسرنا ان نقدمه لقراء العربية فى مناسبة عيد الأضحى المبارك . وهو وان كان يهم المسلمين خاصة ، فان فيه لغير المسلمين مجالا للثقافة النافعة وميدانا للرياضة الفكرية والوقوف على ما فى أصول الاسلام من مثل عليا ومعان انسانية رفيعة